الفصل الخامس والأربعون

المجتمع العربي

المجتمع العربي : بدو وحضر . أهل وبر وأهل مدر ، يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى .

وقسّم بعضهم عرب الجاهلية الى ملوك وغير ملوك . وقسموا سائر الناس بعد الملوك الى طبقتين : أهل مدر وأهل وبر . فأما أهل المدر ، فهم الحواضر وسكان القرى، وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة . وأما أهل الوبر ، فهم قطان الصحارى يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكلأ ، مرتادين لمواقع القَطر ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون في حلّ وترحال[1] .

ويعرف الحضر ، وهم العرب المستقرون بـ (أهل المدر) ، عرفوا بذلك لأن أبنية الحضر إنما هي بالمدر . والمدر : قطع الطين اليابس . قال (عامر للنبي ، صلى الله عليه وسلم : لنا الوبر ولكم المدر) ، فعنى به المدن أو الحضر[2] . ومن هنا قيل للحضر : بنو مدراء[3] . وورد في حديث (الجسّاسة والدجال) :

---

١ ابن العبري ، مختصر الدول ، (١٥٨ وما بعدها) .
٢ اللسان (٥/١٦٢) ، (مدر) .
٣ اللسان (٥/١٦٢) ، (مدر) .

(تبعه أهل الحجر وأهل المدر ، يريد أهل البوادي الذين يسكنون مواضع الأحجار والرمال ، وأهل المدر ، أهل البادية)[1] . ويظهر من روايات أخرى ان (أهل المدر) هم أهل البادية . ولكن أكثرها ان (أهل المدر) ، هم الحضر ، لأن اتخاذ بيوت المدر لا يكون في البادية ، بل في الحضر .

وورد أن أهل البادية إنما قيل لهم (أهل الوبر) ، لأن لهم أخبية الوبر . تمييزاً لهم عن أهل الحضر الذين لهم مبانٍ من المدر ، ومن هنا قيل للقرية (المدرة) ، لأنها مبنية بالطين واللبن ، وذكر ان (المدرة) القرية والمدينة الضخمة أيضاً ، لأن المدن تبنى بالمدر أيضاً . ومن هنا قيل للحضر عموماً : بنو مدراء[2] .

ويذكر علماء اللغة ان الحضر والحاضرة والحضارة خلاف البادية والبداوة والبدو . والحضارة الإقامة في الحضر . والحاضر والحضر هي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[3] . وقد عرفوا بأهل القارية ، وذلك في مقابل أهل البادية ، لأهل البدو[4] .

و (أهل القرار) ، هم الحضر ، لأنهم اختاروا القرار وأحبوا الاستقرار والإقامة في مكان واحد . ولأن الطبيعة حببتهم بكل شيء يغري على الارتباط بالأرض ، ولو ولد الأعرابي بين الحضر وتوفر لديه ما يؤمن له رزقه الدائم في مكانه الذي ولد فيه ، لما تنقل وارتحل ، ولصار حضرياً من دون شك مثل سائر أهل الحضر . ولكن الطبيعة حرمته من نعم الاستقرار ، فصار بدوياً يتتبع العشب والماء . فالطبيعة هي المسؤولة عن البداوة وعن انتشارها في جزيرة العرب .

ومن هنا قيل للحضري الذي لا ينتجع ويكون من أهل الأمصار (القراري) . ولما كان أكثر (أهل القرار) ، هم من الصناع ، قيل لكل صانع (قراري) .

---

١ اللسان (١٦٦/٤) ، (حجر) .
٢ تاج العروس (٥٣٥/٣) ، (مدر) .
٣ تاج العروس (١٤٦/٣) ، (حضر) .
٤ اللسان (١٧٨/١٥) ، (قرا) .

وذكر بعض علماء اللغة ان (القراري) : الخياط . واستشهدوا على ذلك ببيت شعر للأعشى ، هو :

يشق الأمـــور ويجتابهـــا كشق القراري ثوب الردن

وذكر بعض آخر انه القصّاب . وقد تجوّز الناس فيما بعد ، فقالوا : خياط قراري ، ونجّار قراري[1] .

ويقال لساكن القرية القاريّ ، كما يقال لساكن البادية البادي . والقارية سكنة القرى أي خلاف البادية والأعراب . والقرية كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً . وتقع على المدن وغيرها[2] . وسكانها من الحضر . ويذكر علماء اللغة ان (المدينـــة من مَدَنَ ، بمعنى أقام بمكان . ويراد بهـــا الحصن يبنى في اصطمة الأرض[3] . وتقابلها لفظة (مدينتو) في الارميـة[4] . و (هكرن) (هكر) (هجر) في العربية الجنوبية . وأما (البلدة) ، فذكر علماء اللغة انهـــا كل موضع أو قطعة من الأرض مستحبزة عامرة أو عامرة ؛ خالية أو مسكونة[5] . فالبلدة ، إذن من مواطن الحضر أيضاً .

وقد كان من الصعب التمييز عند الشعوب القديمة بين القرى والبلدان والمدن . وكل بلدة أو مدينة كانت قرية في الأصل ، أي مستوطنة صغيرة غير محصنة ، وعندما ازداد عدد سكانها ، وكثر عمرانها ومالها لأسباب عديدة ، توسعت وحصن أهلها أنفسهم بحصون وبأطم أو بسور وخندق يحيط بـــه لمنع العدوّ من الدنوّ منها[6] . وبهذه التحصينات وبكثرة عدد السكان تميزت هذه المستوطنات السكنية بعضها عن بعض ، ولهذا كانت الشعوب القديمة لا تطلق لفظة (مدينـــة) إلا على القرى المحصنة المسوّرة ، وفي ضمن هذه الشعوب العرب .

وتطلق لفظة (عرب) على أهل المدر خاصة ، أي على الحضر و (الحاضر)

---

١ تاج العروس (٣/٤٩٠) ، (قرر) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) .
٣ تاج العروس (٩/٣٤٢) ، (مدن) .
٤ غرائب اللغة (٢٠٥) .
٥ تاج العروس (٢/٣٠٥) ، (بلد) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٢١) ، (مدينة) ،
Hastings, P. 143, 944, 958.

و (الحاضرة) من العرب ، اما اهل البادية ، فعرفوا بـ (اعراب) . مع ان كلمة (العرب) قد أطلقت في لغتنا لتشمل العربين : عرب الحـاضرة وعرب البادية . [1] ويظهر ان هذا الاطلاق انما وضع قبيل الاسلام . فقد سبق لي أن بينت في الجزء الاول من هذا الكتاب تأريخ كلمة (عرب) ، وبينت كيف تطورت اللفظة الى ظهور الاسلام ، وقد رأينا أنها كانت تعني اهل البادية ، أي الاعراب في الأصل . أما الحضر فعرفوا بأسماء أماكنهم أو قبائلهم ، وآية ذلك أن التوراة والكتابات الآشورية والبابلية بل والجاهلية ، أي الكتابات العربية التي تعود الى ما قبل الاسلام ، كانت كلها اذا ذكرت الحضر ، ذكرتهم بأسمائهم ، ولم تطلق عليهم لفظة (عرب) ، أما اذا ذكرت أهل البادية ، فانها تستعمل لفظة (عرب) و (عربي) ، أي أعراب وأعرابي مع أسمائهم ، وذلك مثل (جندب) ، وهو رئيس قبيلة ، وقد حارب الآشوريين ، فقد دعي في الكتابات الآشورية بـ (جندب العربي) ، أو (جندب الأعرابي) بتعبير أصح ، ومثل (جشم) الذي نعت في سفر (نحميا) من أسفار التوراة بـ (جشم العربي) اشارة الى كونه من الاعراب ، لا من الحضر ، وهو من الملوك كما سبق أن تحدثت عنه في الجزء الاول من هذا الكتاب . [2] الى غير ذلك من أمثلة تحدثت عنها في أثناء حديثي عن لفظة عرب .

اما (يقطن) وهو (قحطـان) : ونسله مثل : سبأ وحضرموت . واما (اسماعيل) ونسله ، وأما اهل (تيماء) و (مدين) وأمثالهم ، فلم تطلق التوراة عليهم لفظة (عرب) ، لأنهم لم يكونوا اعراباً ، بـل كانوا حضراً ، ولهذا ذكرتهم بأسمائهم ، فاستعمال (عرب) اذن بمعنى اهل الحاضر والحاضرة ، او اهل المدر ، هو استعمال متأخر ، ظهر بعد الميلاد .

لقد ذهب علماء العربية كما سبق ان بينت في الجزء الاول من هذا الكتاب ، الى ان العربية هي لغة (يعرب) ، وهو اول من اعرب بلسانه على حدّ قولهم ، وذهبوا الى ان العـدنانيين متعربون ، ولم يكونوا عرباً في الاصل ، ثم تعلموا

---

١ بلوغ الأرب (١٢/١) .
٢ (ص ٦٤٦ وما بعدها) .

واختلطوا بالعرب حتى صاروا طبقة خاصة منهم.[1] وذهبوا الى ان التبابعة كانوا عرباً ينظمون الشعر بالعربية التي نظم بها الشعراء الجاهليون شعرهم. ثم ذهبوا الى ان (حمير) كانت تتكلم بلسان غريب عـدّه بعض العلماء غير عربي.[2] مع انها من لبّ العرب الصرحاء على حسب رأيهم ، ولم يبينوا كيف وقع ذلك عندهم ، الى آخر ما نراه عندهم من آراء ، لم تبن على دراسات تأريخية اصلية ونصوص جاهلية .

ولو كان المذكورون احياء في هذا اليوم ، ولو كانوا قد وقفوا على النصوص الجاهلية المختلفة وقرأوها ، لغيّروا رأيهم حتماً من غير ريب ، ولقالوا قولاً آخر غير قولهم المتقدم في العربية وفي سبب تسميتها . فعربية القرآن الكريم هي عربية اهل مكة وما والاها ، وهي عربية الاعراب ، اي عربية اهل البادية. اما عربية اهل اليمن ، وهم صلب القحطانية ، فعربية اخرى . وان اردتّ قولاً اصح تعبيراً وأدق تحديداً ، فقل : عربيات اخرى. فعربية يعرب ان تجوزت وجاريت رأي اهل الانساب والاخبار وقلت قولهم في وجود جدّ وهو يعرب ، يجب ان تكون عربية اخرى ، بل عربيات مخالفة لعربية اهل مكة ، وذلك استناداً الى النصوص الجاهلية المدوّنة بأقلام ابنائه وحفدته والواصلة الينا . ولما كانت اللغـة العربية ، هي عربية القرآن الكريم في رأي علماء اللغة ، وهي عندهم وحدها اللغة الفصحى ، وأشرف لغات العرب ، اذن فلغة يعرب على هذا القياس لغة اعجمية غير عربية ، او عربية من الدرجات الدنيا ان اردنا التساهل في القول . وعندئذ يكون يعرب هو العربي المتعرب ، ويكون نسله على وفق هذا المنطق ، هم العرب المستعربة ، لا العرب العدنانيين .

ويكون العدنانيون هم أصل العرب ولبّها والعرب العاربة الأولى ، أي عكس ما يراه ويزعمه اهل الاخبار . أحكي هذا القول بالطبع متجوزاً أو مجارياً رأي اهل الاخبار ولا أحكيه لأني أراه ، فأنا لست من المؤمنين بمثل هذه الاقاصيص التي يقصها علينا القصّاص ، ولا سيما قُصّاص اهل اليمن من امثال وهب بن منبه وابن اخته ، أو ابن الكلبي ، وبعض القصّاص الذين هم من اصل يهودي

---

١ تاج العروس (١/٣٧١) ، (عرب) .

٢ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٥ وما بعدها) .

مثل وهب المذكور ومحمد بن كعب القرظي . فرأيي أن كل لغات العرب الجاهلية هي لغات عربيـــة ، وأنها كانت متباينة عديدة ، وبعضها لغات وصلت مرحلة التدوين مثل المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية وغيرها . ولغاتٌ تصل الى درجة التدوين عند المتكلمين بها ، لا يمكن أن تعدّ لغات سوقة ولهجات عامة .

وبعد فلست أرى أن بين (يعرب) المزعوم ، وبين لفظة (العربية) والعرب أية رابطة أو صلة ، وأن الصلة المزعومة المذكورة التي يذكرها أهل الاخبار في تفسير اللفظة ، هي صلة خلقت خلقاً وصنعت صنعاً ، لكي يجد صانعوهـــا لهم مخرجاً في تفسيرها ، وليس تفسيرهم هذا هو أول تفسير أوجدوه ، فلدينا مئات من التفاسير المصنوعة ، لألفاظ أشكل أمرها على الرواة وأهل الاخبار ، فوضعوا لها تفسيرات على هذا النمط ، ليظهروا أنفسهم مظهر العالمين بكل شيء .

هذا وقـــد قلنا ان العربية هي بمعنى الاعرابية ، أي البداوة في لغة الأعاجم وفي لغات أهل جزيرة العرب أنفسهم ، وهي نسبة الى العرب ، والعرب هم الأعراب في البدو في لغات المذكورين . فتكون العربية اذن بمعنى عربية الاعراب : اي لغة اهل الوبر ، وقد نسبت اليها ، لا الى يعرب بن قحطان . وهي بالطبع لم تكن لهجة واحدة ، أي عربية واحدة ، بل كانت لهجات . قيل لها عربية ، لأن الاعراب وان كانوا قبائل ، تجمع بينهم رابطة واحدة ، هي رابطة البداوة ، فكأنهم طبقة واحدة ، تقابلهم طبقة (اهل المدر) ، وهم الحضر . لذلك نعت لسانهم بلسان عربي . ولما كانت البـــداوة أعم من الحضارة في بادية الشام وفي طرفي الهلال الخصيب ونجد والحجاز والعربية الشرقية ، صار لسانها اللسان الغالب في هذه الأرضين ، وبلسانها نظم الشعراء شعرهم ، وبلسان عرب الحجاز نزل القرآن الكريم ، فصار لسانهم لسان الوحي والاسلام .

ومن ثَمّ صار اعتماد اوائل علماء العربية في دراستهم لقواعد اللغـــة من نحو وصرف ومن استشهاد بشواهد على (العرب) ، أي أهل الوبر من ابناء البادية ، من الاعراب المعروفـــين بصدق لسانهم وبصحة اعرابيتهم وبعدم تأثر ألسنتهم بألسنة الحضر من اهل الحواضر ، بل لم يكتف اولئك العلماء بألسنة هؤلاء الاعراب القادمين عليهم من البوادي ، لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، فركبوا ابلهم وذهبوا بأنفسهم الى صميم البوادي البعيدة عن الحضر ، ليأخذوا اللغة صافية نقية من افواه رجالها الأصلاء الذين لم يتعلموا خدع اهل الحاضرة وغشهم وكذبهم ، ولم تنحرف

ألسنتهم عن ألسنة أجدادهم ، ولم تتأثر بأحرف الأعاجم المندسين في القرى والمدن والأرياف . فكان (سيبويه) مثلاً اذا استشهد بشاهد أشار الى أنه من (العرب الذين ترضى عربيتهم) أو من (العرب الموثوق بعربيتهم) [1] ، أو من (العرب الموثوق بهم) ، أو من (فصحاء العرب) . وكان يرى أن لسان اهل الحجاز هو (الأول والأقدم) [2] . وكان علماء اللغة اذا اختلفوا في شيء من اللغة من ألفاظ أو قواعد ، حكّموا أهل البادية ، اي الأعراب فيما شجر بينهم من خلاف ، حتى وإن كان اولئك العلماء من اوثق الناس علماً بعلم العربية ، فحكموا الاعراب مثلاً في المناظرة اللغوية التي وقعت بين سيبويه والكسائي والأخفش في حضرة (يحيى بن خالد) مع أنهم اعلم الناس بعلوم العربية [3] . وقد اورد (ابن النديم) اسماء عدد من (الاعراب) كان علماء العربية يلجؤون اليهم في الملمّات ، ويأخذون عنهم ، ويحكّمونهم فيما يقع بينهم من خلاف . فهم (حُكّام) ذلك الزمن وقضاته ، يحكمون في منازعات الناس في اللغة . [4]

والحد الفاصل بين الحضارة والبداوة ، هو طراز الحياة ونوعها ، فالحضر اهل قرار . والاعراب ينتجعون ويتتبعون مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب اذا اعشبت البلاد ، ويشربون (الكرع) وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع الى ان يهيج العشب من عام قابل وتنش الغدران ، فيرجعون الى محاضرهم على إعداد المياه . [5] وحياتهم على الإبل فلا يعتنون بتربية ماشية غيرها . ومن هنا اقترنت البداوة بالبادية وبتربية الإبل ، التي تنفرد عن غيرها من الحيوانات بقابليتها على المعيشة في البادية وبقوة صبرها على تحمل الجوع والعطش اياماً ، بينما تقصر هم الحيوانات الاخرى عن مجاراتها في هذا الباب . ومن هنا نقصد بالاعراب : البدو الحقيقيين ابنـاء البادية وأصحاب الجمال الذين ينتجعون ويتتبعون مساقط الغيث ويشربون الكرع ويكون تماسهم بالحضارة والحضر قليلاً . [6]

---

١ الكتاب (١/٩٣ ، ١٥٣ ، ٤٥١) ، (٢/٢٦٤ ، ٤٢٣ ، ٤٥١) .
٢ الكتاب (٢/٤١ ، ٤٢٤) ، يوهان فك ، العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، (ص ٥٠ وما بعدها) ، (تعريب عبد الحليم النجار) .
٣ الفهرست (٨٢ وما بعدها) .
٤ الفهرست (ص ٧١ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٦ De Vaux, Ancient Israel, P. 3.

وما أقوله يخصُّ اعراب نجد وبادية الشام بالدرجة الأولى . أما أعراب العربية الجنوبيـــة ، فإن وضعهم يختلف عن وضع هؤلاء الاعراب . فهم وان عدّوا اعراباً ونُص عليهم بـ (اعرب) (أعراب) في نصوص المسند . لكنهم لم يكونوا اعراباً نقّلاً ، يعيشون على تربية الإبل والغارات وعلى بعض الزراعة وكره الاشتغال بالحرف ، بل كانوا شبه مستقرين سكنوا خارج المـــدن والقرى في مستوطنات متجمعة مؤلفة من بيوت وأكواخ وعشش من طين . ومارسوا تربية الإبل والماشية الاخرى ، واشتغلوا بالزراعة وبالحرف اليدوية لم يجدوا في ذلك بأساً . وكانوا يغيرون على الحضر ان وجدوا فرصة مؤاتية ولم يكونوا اقوياء بالنسبة الى الحضر ، لوجود حكومات منظمة ، في استطاعتها ضربهم ان تحرشوا بأهل المدن والقرى . ولهذا لا نجد للأعراب ذكراً في نصوص المسند القديمة ولم يظهر اسمهم فيها كقوة ضاربة الا بعد الميلاد وقبيل الاسلام . حين ارتبك الوضع السياسي في العربية الجنوبية ، وتدخل الحبش في شؤونها ، وولع بعض ملوكها مثـــل الملك (شمر يهرعش) في اثارة الحروب . مما أفسح المجال للأعراب فجربوا حظهم بالدخول في لعب الحروب . فلما وجدوا لهم حظاً حسناً وربحاً طيباً ، مارسوها مع هذا الحاكم أو ذاك ، وظهر اسمهم عندئذ في المسند . بل دخل في اللقب الرسمي الذي حمله الملوك فصار اللقب : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في الهضاب وفي التهائم) . وطمع أعراب نجد في الحصول على مغانم في العربيـــة الجنوبية فارتحلوا نحوها ، وزاد بذلك عدد الاعراب . ومن هؤلاء كندة الذين تركوا ديارهم بنجد بعد نكبتهم وانضموا الى اخوانهم في العربية الجنوبية فصار لهم فيها شأن كبير ، حتى ذُكروا في النصوص ، ومنها نصوص أبرهة .

ومعاش الحضر ، على الارض يزرعونها ويعيشون عليها ، أو على التجارة أو على الحرف اليدوية ونحوها . ومن طبيعة أهل الحضر الاستقرار في أرض تكون وطناً ثابتاً لهم ، ومقاماً يقيمون فيه فيحبونه ويموتون في سبيله . أما أهل الوبر ، فهم رُحّل ، يتنقلون طلباً للماء والكلأ والامتيار ، فوطنهم متنقل فلق غير مستقر . الارض كلها وطنهم ، ولكنها الارض التي يكونون فيها ، فاذا ما ارتحلوا عنها ، صارت الارض الجديدة وطناً لهم جديداً . أما الارض القديمة فتكون وطناً لمن يحل فيها من طارىء جديد أو طارىء قديم .

والمشهور عند العرب وعند الأعاجم ، أن العرب قوم يكرهون الزراعة والاشتغال

بالحرف والصناعات . ويستخفون بشأن من يشتغل بها ويزدرونه ، فلا يتزوجون منه ولا يزوّجونه منهم . وينطبق هذا القول على الاعراب وعلى بعض الحضر الى حد ما . لكنه لم ينطبق على كل العرب . فالعرب الحضر ، الذين وُجد الماء بغزارة عندهم ، غرسوا الأشجار أيضاً وزرعوا ، لم يجدوا في ذلك خسّة ولا دناءة . والعرب الذين توفرت لهم مواد العمل وظروف العمل ، اشتغلوا بالحرف وبالصناعات ، كما هو شأن الطائف والعربية الجنوبية بل وبعض رجال مكة ايضاً . أما الذين ازدروها وكرهوها فهم الذين لم تتوفر لهم الاسباب التي تغريهم على الاشتغال بالحرف والصناعات ، ولم تتوفر لديهم المواد الأولية ولا الظروف المساعدة على قيام الحرف . لذلك كرهوها كره من يكره شيئاً لأنه لا يملكه ولا يناله ، أو لأن يده لا تصل اليه ، ولو ملكه لغيّر حكمه عليه من غير شك .

وقد أشار (أمية بن خلف الهذليّ) الى اشتغال أهل اليمن بالحرف ، بقوله :

يمانياً يظل يشدّ كيراً وينفخ دائباً لهب الشواظ [1]

وقد أمدّ أهل اليمن الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب بالسيوف وبمصنوعات المعادن وبالبرد والأنسجة الأخرى . كما عرفوا باتقانهم البناء والنجارة وغير ذلك من حرف الحضر ، التي أشير اليها في الشعر الجاهلي .

وقد عيب على اهل اليمن اشتغالهم بالحرف : كالحدادة والحياكة والصياغة وما شاكل ذلك من حرف ، على نحو ما تحدثت عن ذلك في فصل : (طبيعة العقلية العربية) . ولكنّ مَنْ عابهم كان عالة عليهم وعلى غيرهم من أهل الحرف في أكثر الأمور التي كانت تخصّ شؤون حياتهم اليومية ، كالسيوف والخناجر الجيدة مثلاً التي هي عماد المحافظة على حياة الانسان في البادية . كما اعترف لهم بالتفوق على مَنْ كان يزدري الصناعة والحرف . فكانوا يخافونهم في الحروب ، ويهابونهم عند القتال ، لامتلاكهم أسلحة لا يملكونها هم . وكانوا يلجئون اليهم لتنصيب رئيس منهم عليهم . تهابه القبائل لصعوبة انصياع القبائل لقيادة رئيس منها ، بسبب التحاسد القبلي ، كما كانوا يخضعون لحكم أهل اليمن بسبب تفوقهم عليهم في السلاح وفي الثقافة الى غير ذلك من أسباب ترجع في الواقع الى الطبيعة التي

---

١ تاج العروس (٩/٣٧١) ، (يمن) .

عطفت على اليماني وعلى العربي الجنوبي ، ففوّقته على الاعراب .

ولما كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على جزيرة العرب ، كان لهذه الطبيعة أثرها في حياة العرب ، فغلبت البداوة على الاستقرار ، وأثرت في النظم والآراء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية وفي سائر نواحي الحياة الأخرى . لقد حالت دون قيام المجتمعات الكبرى القائمة على الاستقرار والاستيطان واستغلال الارض ، وجعلت من الصعب قيام الدول الكبيرة في هذه البلاد ، وتكوين حكومات تقوم على احترام حقوق جميع أبناء الحكومة دون نظر الى البيوتات والعشائر والقبائل والرئاسات .

وفي الأماكن التي توافرت فيها المياه ، المياه النابعة من الارض او النازلة من السماء ، نشأت مجتمعات مستقرة ؛ وظهرت حكومات ، غير أنها حكومات اختلف طابعها وشكلها باختلاف المحيط الذي ظهرت فيه ، والاحوال الطبيعية التي ألمت بها ، والقدرة المادية التي تيسرت لديها . فيها الحكومات الصغيرة التي قد تكون حكومات (قرية) ، أو رئاسات عشائر ، وفيها ما يمكن أن يعبر عنه بحكومات مدن ، إن جاز اطلاق مصطلح (المدن) عليها ، وفيها حكومات أكبر وأوسع مثل حكومات الحيرة والغساسنة ، وفيها حكومات مثل حكومات العرب الجنوبيين ، وهي حكومات كبيرة اذا قيست الى الحكومات التي كونها سادات القبائل في أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، ولم تعمر طويلاً ، بل كانت مثل رغوة الصابون ، لا تكاد تنتفخ حتى تزول ، وذلك لأسباب وعوامل لا يتسع لها صدر هذا المكان .

فالطبيعة هي التي صيّرت العرب على هذا الحال ، وهي التي غلبت عليهم البداوة . إذ حرمتهم من الماء وجادت عليهم برمال تلفح الوجوه ، وبسموم مؤذية وبحرارة شديدة ، وبأرض متسعة تظهر وكأنها بحر من رمل لا حدّ له ، صيّرت من وُلد فيها انساناً قلقاً هائماً على وجهه ، يتنقل من مكان الى مكان بحثاً عن ماء وأكل . خلا الأماكن السخية التي خرجت منها دموع جرت فوق الأرض بقدر وبمقدار ، أو مواضع قَرُبَ الماء فيها من سطح التربة فاستنبطه الانسان ، أو أماكن انهمرت من سمائها العاشقة للأرض دموع حبها في مواسم من السنة فأصابت الأرض بطلّ ، فاستهوت الانسان ، واستقر بها وتحضر . وصار العرب من ثم بدواً وحضراً ، أهل بادية وأهل حاضرة .

ومن آيات ذلك ، أننا نجد قبيلة واحدة ، فيها بادية وفيها حاضرة ، استقرت وتحضرت وسكنت في بيوت ثابتة ، لا يهمنا أكانت بيوتها من صخر أو من حجر أو من مدر أو من بيوت شعر ، إنما المهم انها بيوت ثابتة ارتبطت بالأرض ، شعر قطانها ان لهم صلة بهذه الأرض وان لهم بها رابطة ، لا يحلّ عقدها إلا الموت أو الضرورات القصوى . فقريش حاضرة وبادية . وجهينة حضر ، أقاموا بينبع وقرية (الصفراء) ، وأعراب هبطوا رضوى و (عَزْوَرّ)[1] . و (همدان) حاضرة وبادية . ونهد حضر ، وهم من سكن الصفراء منهم ، وأهل وبر ، وهم من سكن دون المدر في جبلي رضوى وعَزْوَرّ[2] . وتنوخ حضر ، وتنوخ أهل بادية وتنقل . الى غير ذلك من قبائل ، استقرت أحياء منها ، وتبدت أحياء أخرى منها .

ثم إننا نجد قرى منتشرة في مواضع من العربية الغربية وفي نجد والعربية الشرقية أو العربية الجنوبية ، وقد سكنها قوم عرب حضر زرعوا وحفروا لهم الآبار وتعهدوا العيون بالرعاية ليستفيدوا من مياهها ، وجاؤوا بأشجار من الخارج لزرعها هناك . وفي كتب (الهمداني) و (عرام) ، وكتب غيرهما ممن بحث عن جزيرة العرب أسماء قرى ومدن جاهلية ، كانت ذات مزارع وحدائق ، أما اليوم ، فبعضها أثر ، وبعض منها قد زال وذهب مع الذاهبين ، لم يترك له حتى بقية من أثر . وتلك المواضع هي دليل في حدّ ذاته على ان الماء إذا وُجد في مكان ما أكره سكانه على الاستقرار به ، وأجبر قسماً من أهله على الاشتغال بالزرع . ولم ينضب الماء من تلقاء نفسه عن المواضع التي اندثرت وماتت وإنما وقعت أحداث لا مجال لي للبحث عنها في هذا المكان ، ومنها الهجرة الى خارج جزيرة العرب بالفتح وتحوُّل الطرق التجارية العامة وإعراض الحكومات عن الاهتمام بشؤون جزيرة العرب ونحوها ، فأكرهت السكان على الارتحال عنها ، فأهملت آبارها وترستها الرمال فجفت وذهب ماؤها عنها .

وفي تلك المواضع التي توفرت فيها المياه من مطر وعيون وآبار ومياه جوفية

---

١ بفتح العين وسكون الزاي وفتح الواو ، اللسان (٤/٥٦٣) ، (عزر) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٨ ومابعدها) .

٢ عرام (٧) .

قريبـــة من سطح الأرض ظهرت الحضارة على شكل قرى ومستوطنات وأسواق موسمية ، كان لها كلها أثر خطير في حياة العرب عموماً من عرب وأعراب . لما كان يقع فيها من اتصال ومن تبادل آراء بين الحضر والبدو ، وبين هؤلاء جميعاً وبين الأعاجم الذين كانوا يؤمونها للاتجار بها بصورة مؤقتة أو دائمة ، حيث كانوا يقيمون بها اقامة طويلة أو أبدية ، وبالأعاجم الذين كانوا يقيمون فيها رقيقـــاً مملوكاً لمن اشتراهم من الملاكين . وبذلك حدث نوع من التلقيح في الآراء والأفكار وفي شؤون الحياة : تلقيح مهما قيل فيه وفي درجته ، فإنه تلقيح على كل حال [1] . وهذه المواضع هي التي كونت وخلقت تأريخ العرب فيما قبل الإسلام .

وقد نبّه (الجاحظ) الى الاختلاف بين البدوي والحضري ، والسهلي والجبلي ، فأشار الى اختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، والى اختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار ، ثم الى ما ترك هذا الاختـــلاف في المواضع والمكان من أثر في اختلاف اللغة ، فتحالفت عليا تميم ، وسُفلى قيس ، وعجز هوازن وفصحاء الحجـاز في اللغة . وهي في أكثرهـــا على خلاف لغة حمير ، وسكان مخاليف اليمن . (وكذلك في الصورة والشمائـــل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربـي خالص) . وأشار الى ما تركه هذا السكن من أثر في أخلاق العرب ، حتى ليقال : (إن هذيـــلاً أكراد العرب) [2] . بسبب طباعهم وصبرهم على تحمل القتال .

كما أشار (الجاحظ) الى ان هذا الاختلاف ظاهر في العرب جميعاً ، قحطانيين وعدنانيين . ومع ذلك فهـــم كلهم عرب ، لأنهم استووا في التربـــة وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الأنفة والحمية ، وفي الأخـــلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا افراغاً واحداً [3] .

وكان من أثر اختلاف طبيعة الجوّ والأرض والضغوط الجوّية في أهل جزيرة العرب ، ان صار لأهل المدر مجتمع يختلف في شكله وتكوينه عن مجتمع أهـــل الوبر ، وان صار مجتمع أهل المدر جملة مجتمعات اختلفت في تكوينها باختلاف

١ Hastings, Dictionary of the Bible I, P. 133.

٢ رسائل الجاحظ (١/١٠ ، ٧١) ، (مناقب الترك) .

٣ رسائل الجاحظ (١/١٠ وما بعدها) ، (مناقب الترك) .

الظروف المؤثرة التي تحدثت عنها ، وباختلاف المؤثرات الخارجية المحيطة بهـا أو المجاورة لها والقريبة منها في ظروف تلك المجتمعات . وصار من ثم مجتمـع العرب الجنوبيين ، ولا سيما مجتمع اليمن ، مجتمعاً خاصاً له طبيعة خاصة وشخصية مستقلة متأثرة بظروف اليمن الكلية من طبيعة أرض وطبيعة جوّ ، وصار لأهل مكة وهم أشبه بأهل الحضر مجتمع خاص له طابع متميز ، وصار لأهـل الحيرة طابع خاص بهم ، وصار لأهل يثرب كذلك مجتمع وطبيعة خاصة متميزة ، وهكذا قل عن بقية المجتمعات الحضرية .

فمجتمع اليمن مثلاً مجتمع خاص نجد فيه صفات المجتمع الحضري أكثر مما نراه في أي مجتمع حضري آخر في جزيرة العرب ، مجتمع يختلف حتى (عربه) أي بدوه وهم الطبقة الثانية من هذا المجتمع ، عن أعراب بقية جزيرة العرب . فهم بالقياس الى بدو الجزيرة شبه أعراب ، ووسط بين البداوة الصرفة وبـين أدنى درجات الحياة الحضريـة الساذجة ، المستندة الى الاستقرار والتعلق بالأرض . ومجتمع اليمن الحضري مجتمع استغل عقله ويده في سبيل تكييف حياته واسعاد أيامه في الدنيا ، فاستغل الأرض وكيفها بحسب قُدرَه واستعداده في انتاج الغلة الزراعيـة وفي انتاج المعادن وفي تربية الحيوان ، وأقام له قصوراً وحصوناً ، واستورد آلات حية يستعملها وتُيسر له ما يحتاج اليه — استوردها من كل الأنحاء من الشمال ومن العراق ومن بـلاد الشأم ، واستوردها من إفريقية . وسخرها في استغلال الأرض وفي إقامة الأبنية وفي أداء الأعمال اليدوية التي تحتاج الى حذق ومهارة ، فتفوق هذا المجتمع من ثمّ وبمزايا إقليمه من جوّ وأرض على المجتمعات العربية الأخرى ، وأنتج حضارة لا نجد لها مثيلاً في بقية أنحاء جزيرة العرب .

فعرف اليمن في جاهليته واشتهر بمهارته وبحذقه بحرف وبمنتجات بقي ذكرها خالداً الى الإسلام ، وتميز عن غيره بحسن الذوق وبالبراعـة في استعمال أنامله . وحـين برع بقية عرب الجزيرة في التعبير عن أحاسيسهم بكلام منظوم ، نجـد عرب اليمن وبقية العربية الجنوبية يعبرون عن أحاسيسهم بنقشها على المرمر وعلى بقية الأحجار وعلى المعادن والخشب ، ونجد السيوف اليمانية ، ولها شهرة وخبر ، ونجد بُسُطَ اليمن وبرودهـم واكسيتهم مشهورة لهـا صيت في كل مكان ، لا يدانيه صيتُ أي صنف مما ينتج في مكان آخر من أمكنـة جزيرة العرب ، ونجد لهم ذكراً في الصياغة وفي سوق الأحجار الكريمة والعطور ، وغير ذلك من المنتجات التي تحتاج الى يد وفكر .

ومجتمع اليمن المتحضر ، مجتمع طبقي ، تكوّن من طبقات : طبقات رفيعة ذات منزلة ومكانة عالية ، تتلوها طبقات أخرى أقل درجة ومنزلة حتى تنتهي بالطبقات الدنيا التي تكون قاعدة لهرم هذا المجتمع وسواد الناس . وهي طبقات تكاد تكون مقفلة ، أو شبه مقفلة إن صح هذا التعبير ، ولا سيما بالقياس الى الطبقات الدنيا ، التي تجنبت الطبقات التي هي فوقها التصاهر معها والاتصال بها ، للفروق المنزلية التي تشعر بوجودها فيما بينها . ثم إن الناس فيها يرثون منازل آبائهم ودرجاتهم ، فابن النجار نجار ، وابن الحداد حداد في الغالب ، وابن التاجر يرث عمل والده ، ويستطيع تغيير حرفته وتحسين حاله ، إذْ ليس لديهم قوانين الزامية تجبر الناس على البقاء في طبقتهم الى أبد الآبدين ، ولكن مثل هذا التغيير لا يقع إلا إذا كان الشخص ذا استعداد وكفاية وطموح ، فيشق طريقه بنفسه هاتكاً ستور الأعراف والعادات .

وما زالت الحياة الاجتماعية في العربية الجنوبية ، تستمد قوتها وحياتها من جذور الحياة الاجتماعية القديمة التي كانت عليها قبل الإسلام . فقد نشأت هذه الحياة ونبتت من حاصل ظروف ذلك المجتمع الذي تحدثت عنه ، وحافظ على خصائصه الى هذا اليوم ، لأنه عاش في عزلة عن العالم الخارجي ، أو في شبه عزلة ، ولهذا بقي يعيش على ما تغذيه به بقايا جذور تلك الأيام من غذاء[1] .

والحضر ، وان استوطنوا واستقروا في أماكن ثابتة ، لم يكونوا حضراً بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا ، فلم يكونوا على شاكلة حضر الروم أو الفرس ، ولا على شاكلة حضر العراق أو حضر بلاد الشأم من غير العرب . انهم حضر من ناحية السكنى والاستقرار ، أي من ناحية تعلقهم بالأرض ونزولهم بها واستيطانهم فيها ، وعدم ارتحالهم عنها على نحو ما يفعل الأعراب ، واتخاذهم مساكن دائمة في مكان ما . أما من ناحية التفكير وطراز المعيشة ونظم الحياة الاجتماعية : فقد بقوا مخلصين لِمُثُل البوادي ولطبيعتها في الحياة . فهم في قراهم ومدنهم (بيوت) و (بطون) ، يقيمون في (شعاب) ولهم عصبية . وهم مثل الأعراب في أكثر مألوف حياتهم . وما زال هذا الطابع الأعرابي بادياً على حياة من نسميهم الحضر في جزيرة العرب وفي خارجها ، مؤثراً في حياتهم السياسية والاجتماعية بل

---

١ Naval, P. 405

في عقلية من نسميهم (المثقفين) الدارسين من مدنيين وعسكريين ، ذلك لأن عقول هؤلاء المثقفين وإن حُشيت بالمعلومات وبالعلوم ، لم تتمكن مع ذلك من التخلص من إرث البداوة المستمدة من طبيعة الجوّ وأثرها في الناس ، في الماضي السحيق وفي الحاضر ، ومن طبيعة المجتمع الذي خلقته هذه الطبيعة وجبلت الناس عليه . ومن أهم صفاته : العنجهية ، والتغني بذكريات الماضي : والابتعاد عن الواقع وعن مشكلات الحياة العلمية ، واللجوء الى العواطف والخيال ، والاسراف في تمجيد النفس الى حد أدى الى ازدراء كل ما هو غير عربي من إنسان ومن نتاج إنسان . أضف اليها (العصبية) بأنواعها : العصبية للأهل والعصبية للعشيرة ثم القبيلة فالحلف في حالة الأعرابية ، والعصبية للأهل والبيوت والشعاب ثم للقرية أو المدينة والقبيلة التي يرجع أهل القرى نسبهم اليها في الأخير ، وذلك بالنسبة الى أهل المدن . ثم الفردية المفرطة التي جعلت من الصعب على الفرد الانقياد لغيره والخضوع لأحد إلا اذا وجد نفسه أمام مصلحة خاصة أو أمام قوة ، ذلك لأنه يرى نفسه أشرف الناس ، وان من المذلة خضوعه لحكم أحد ، ولا سيما اذا كان من يحكمه من أناس هم دون أهله ، ومن عشيرة دون عشيرته . ثم ليس هو هو من أهل الجاه ولا من أهل المال ، فكيف يسلم أمره اليه ؟

الرعـــاة :

وندخل في الحضر الرعاة : رعاة الغنم والمعز والبقر ، ذلك لأنهم اضطروا بحكم طبيعة حياة حيواناتهم الى شيء من الاستقرار ، والى عدم التنقل مسافات بعيدة طويلة في البوادي على نحو ما يفعل الأعراب . ثم انهم يعيشون على الآبار وبرك الماء وعلى مقربة من الحضر ، وفي وضع يجعلهم شبه مستقرين في أكثر أيام حياتهم . وهم (أعراب الضواحي) ، وعنصر مهم من عناصر تكون القرى والمستوطنات ، إذ ان قربهم من الحضر واعتماد حياتهم عليهم ، يحملانهم على التأثر بهم ، وعلى التقرب منهم ومن مستوطناتهم . فتصير (الخيمة) بيتاً مستقراً ، ثم تصير (كوخاً) من طين أو من أغصان شجر ، ثم تتحول بيتاً من بيوت قرية أو حيّ من أحياء مدينة ، لما في المدينة من وسائل معاشية تستهوي الناس ، لا تتوافر في الضواحي البعيدة ، فتحول الرعاة قطّان مدن .

ولا يشترط في الرعاة الاقتصار في حياتهم على تربية الغنم ، إذ فيهم من يربي الإبل أيضاً ، وهم (رعاة الإبل)[1] . والفرق الوحيد بينهم وبين الأعراب وهم رعاة الإبل ، ان الرعاة يلازمون أرضهم واذا تنقلوا طلباً للماء والكلأ فلا يذهبون الى مسافات بعيدة ولا يمعنون في اختراق البوادي ، لأنهم لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ولا يستطيعون الاكتفاء بكلأ البادية لوجود ماشية أخرى عندهم لا تستطيع الصبر على الجوع طويلاً ، كما ان اتصالهم بالحضر أكثر من اتصال الأعراب بهم . ومنازلهم هي في الغالب خليط من بيوت مدر ومن بيوت وبر . ولكنها ثابتة على العموم وحياتهم وسط بين البداوة والحضارة . والأرض التي يقيمون بها تكون ذات آبار وعيون ومتجمعات أمطار ، وهم لا يبتعدون عنها كثيراً ولا يفارقونها لارتباط معيشتهم بها . بينما تكون حياة الأعراب على الغيث في الغالب ، وعلى الآبار والتنقل .

وفي العربية لفظة (جشر) . ذكر علماء اللغة انها تعني القوم يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون بيوتهم . والقوم يخرجون بدوابهم الى المرعى ويبيتون مكانهم لا يأوون البيوت . والمال الذي يرعى في مكانه لا يرجع الى أهله بالليل . وان تخرج بخيلك فترعاها أمام بيتك[2] . الى آخر ذلك من معان تدل على ان الجشر رعاة يخرجون الى المجاشر ، أي المراعي لرعي إبلهم أو خيلهم بعض الوقت ، اذا شبعت إبلهم واكتفت ، عادوا بها الى بيوتهم فأقاموا بها .

الأعراب :

أما أهل الوبر ، وهم الأعراب ، فحياتهم حياة تنقل وارتحال ، وعماد حياتهم (الإبل) ، ولولا هذا الحيوان الصبور لما تمكن الاعرابي أن يقهر البوادي ، وأن يوسع تنقله في أنحائها ، وأن يعيش في هذه الأرضين المقفرة الشحيحة التي يشح فيها سقوط المطر ، ويضطر الانسان فيها الى ضرب الارض بأرجل جَمَله بحثاً عن الكلأ والماء . ولهذا صار (الجمل) (المالَ) الوحيد الذي يملكه

١ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعي) .
٢ اللسان (٥/٢٠٧) ، تاج العروس (٣/١٠٠) ، (جشر) .

الاعرابي ، به يقدر الأسعار ، وبه يقدر (الصداق) وثراء الانسان .

وقد سبق لي أن تحدثت عن معنى (عرب) ، وعن المراد منها الى قبيل الاسلام ، فلا حاجة لي هنا الى اعادة الكلام عن شيء سبق ان تكلمت عنه . أما مصطلح (أهل الوبر) ، فمعناه (عرب) ، أي أعراب بالمعنى الجاهلي القديم . وذلك لأن الأعراب قوم نقل ، يتنقلون من مكان الى مكان ، حاملين بيوتهم وما يملكونه معهم ، وبيوتهم هي الخيام ، وهي مصنوعة من (الوبر) : وبر الإبل في الغالب ، ولذلك عرفوا بها[1] . وعرفوا في الموارد اليونانية بـ (أهل الخيام) وبـ (سكنة الخيام) ، وقد استعمل أعراب العراق وبادية الشأم وأعراب بلاد الشأم الخيام المصنوعة من شعر الماعز ، وهي خيام لونها السواد ، وقد أشير اليها في التوراة وفي موارد تأريخية أخرى .

وذكر علماء اللغة ان العرب : سكان القرى والمدن أي الحضر ، أهل الحاضرة . أما الأعراب ، فهم سكان البادية من هذا الجيل . ويقال للرجل أعرابياً اذا كان بدوياً همه البحث عن الكلأ وتتبع الغيث والرعي . وأما من ينزل الريف ويستوطن القرى والمدن ، فهو عربي ، وان كان دون الأعراب في الفصاحة وفي سلامة اللغة . ويقال للأعراب (الأعاريب) ، وذلك جمع للاعراب . فالأعرابي البدوي ، وهو صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ ، وتتبع لمساقط الغيث ، وسواء كان من العرب أو من مواليهم[2] . ومن نزل البادية ، أو حاور البادين وظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم : فهم أعراب . ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي الى العرب : فهم عرب ، وان لم يكونوا فصحاء[3] .

ويذكر علماء اللغة ان البادية من البروز والظهور . قيل للبرية لكونها ظاهرة بارزة . وان البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها ، وهي خلاف الحاضرة

١ تاج العروس (٣/٥٩٤) ، (وبر) .
٢ روح المعاني ، للألوسي (١١/٤) ، (المنيرية) ، اللسان (١/٥٨٦) ، (صادر) (عرب) .
٣ اللسان (١/٥٨٦) (صادر) ، (عرب) ، تاج العروس (١/٣٧١) ، (عرب) .

والحضارة . وقيل لسكان البادية البدو والبداة[1] . ومن هذا الأصل جاءت لفظة (Bedouin) في الإنكليزية وفي عدد من اللغات الأوربية الأخرى ، بمعنى أعراب .

والأعرابي بالمعنى العلمي المفهوم من اللفظة ، هو — كما قلت قبل قليل — المتبدي ، أي الذي قطن البادية وعاش معظم حياته فيها وانقطع معظم حياتـه عن القرى والمدن . مكتفياً باتخاذ الإبل شريكة له في حياته هذه . قاطعاً البوادي الجافة التي يقل معدل سقوط الأمطار فيها عن (٤) عقد في السنة ، للبحث عن الكلأ والماء[2] . قانعاً بحياته التي يحياها والتي أحبها وتعلق بها على مـا فيها من قساوة وضراوة وفقر وشح في العيش . حتى صار لا يفارقها لأنه ولد بها . فهو لا يعرف دنيا غيرها ، ولا يعرف ان في الدنيا مكاناً أطيب من وطنه الذي يعيش فيـه . وكل مولود على ما يولد عليه .

وتعيش بين الحضر والبادية قبائل ، صيّرتها اقامتها بين العالمين عالماً وسطاً ، لا هو مجتمع حضريّ ولا هو بدوي أصيل ، حافظ على خصائصه البدوية الموروثة من البادية ، واكتسب باحتكاكه بالحضر ما يلائم طبعه ومـا فرضه عليه محيطه الجديد من حياة أهل الحضر . فصار يزرع بعض الزرع ويرعى البقر والخيـل والأغنام والمعز ويأتي الى القرى والمدن للامتيار ، ويستخدم موادّ لا يستخدمهـا الأعراب لعدم وجود حاجة لهم بها ، ولفقرهم الذي لا يسمح لهـم بشرائها ، وأخذ يبيع لأهل الحضارة ما يفيض عن حاجته من الألبان والزبد والجلود والأصواف والحيوانات . فأهل هذا العالم إذنْ هم عالم وسط عالمين ، وقنطرة تربط بـين العتبة الأولى من عتبات الحضارة والدرجة الأولى من درجات البداوة . وخير مثل على هؤلاء هم عرب مشارف الشأم ، وعرب مشارف العراق . ويراد بالمشارف القرى والمستوطنات والمضارب القائمة على ما بين بلاد الريف وبين البوادي[3] .

و (الريف) في رأي بعض علماء اللغة الخصب والسعة في المأكل والمشرب وما قارب الماء من الأرض . أو حيث يكون الخضر والميـاه والزرع . ولهـذا قيل : (تريف) اذا حضر القرى وهي المياه ، و (راف البدويّ) يريف

١ De Vaux *PA* 3:

٢ تاج العروس (١٠/٣٢) ، (بدا) .

٣ تاج العروس (٦/١٥٤) ، (شرف) .

اذا أتى الريف . ومن هنا عرف البدويّ بأنه جوّاب بيداء ، لا يأكل البقـل ولا يريف[1] .

وورد في الحديث : (كُنّا أهل ضرع ولم نكن أهـل ريف . أي إنا من أهل البادية لا من أهل المدن)[2] . ولكن المفهوم من لفظة (ضرع) ، انهـا لفظة تطلق على الماشية ذوات الظلف والخف ، أو للشاء والبقر[3] ، ولهذا فيجب تفسيرها ، بإنا من أهل ذوات الظلف والخف ، أي من الرعاة لا أهل الزرع ، والرعاة هـم قُطّان المشارف ، القريبـين من القرى والريف ، ولا يقيمون في البادية ، لأن الشاء والبقر وبقية الماشية باستثناء الإبل لا تعيش في البادية وإنمـا ترعى الأماكن الخصبة من الماء والريف .

والحاضرة خلاف الباديـة ، وهي القرى والمدن والريف ، سمّوا بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار . وذكر ان كل من نزل على ماء عدّ ولم يتحول عنـه شتاءً ولا صيفاً ، فهو حاضر ، سواء نزلوا في القرى وَالأرياف وبيوت المدر أو بنوا الأخبية عند المياه فقرّوا بها ورعوا ما حواليها من الكلأ . ولهذا قالوا : الحاضر : القوم نزول على ماء يقيمون بـه ولا يرحلون عنه . وقد يكون ذلك في البوادي . إذْ يقيمون حول بئر أو ماء دائم ، ولا يرتحلون عنه . فهذا نوع من أنواع الحاضرة في جزيرة العرب[4] . وهم بهذا حضر جزيرة العرب ، فهم سكان مستوطنات صغيرة ظهرت في مواضع الماء وعند مفترق الطرق ، في هذه البوادي الجافة الواسعة .

وفي هذه الحواضر التي أسعفها الحظ بالماء ، ظهرت مجتمعات متحضرة ، أي مستقرة ، استفادت من الماء فبنت بعض البيوت وزرعت بعض النخيل والأشجار. ومقياس هذه الحواضر ، هو الماء . فاذا وجد بغزارة أو كان قريبـاً من سطح الأرض توسعت به رقعة الحضارة ، بمقدار سعة الماء وسعد الناس بالعيش في بيوت

١ جواب بيداء بها غروف لا يأكل البقل ولا يريـف
ولا يرى في بيته القليف
اللسان (١٢٨/٩ وما بعدهـا) ، (ريف) ، تـاج العروس (١٢٣/٦) ، (تريف) .
٢ اللسان (١٢٨/٩) ، (ريف) .
٣ اللسان (٢٣/٨) ، (ضرع) ، تاج العروس (٤٣٠/٥) ، (ضرع) .
٤ اللسان (١٩٧/٤ وما بعدها) ، (حضر) .

مستقرة دائمة ثابتة ، أما اذا كانت الارض ضحيحة بخيلة ، لا تسعف من يعيش فوقها بماء ، فان الانسان يتحاشاها بالطبع ويبتعد عنها خلال أيام الغيث . وحواضر البوادي هي المواضع التي يجب أن نوجه اليها أنظارنا للبحث فيها عمّا قد يكون الدهر قد خبأه فيها من كنوز وآثار . وهي منتشرة في مواضع عديدة من جزيرة العرب ، لا سيما عند الأودية وقرب الحسي والجعافر والعيون .

و (عرب الضاحية) أو (عرب الضواحي) ، هم العرب النازلون بظواهر الريف والحضارة وبظواهر البادية . و (الضاحية) الظاهرة الخارجة من الشيء التي لا حائل دونها ، و (الضامنة) ما أطاف بالشيء مثل سور المدينة ، أي ما كان داخل شيء . وضواحي الروم : ما ظهر من بلادهم وبرز . [1] ويراد بـ (عرب الضاحية) ، عرب مشارف العراق وعرب مشارف الشام ، لأنهم أقاموا ضواحي العراق وبلاد الشام ، وعلى تخوم البادية . [2] وقد تأثر أكثر الاعراب الساكنين بأطراف الحضارة وبأخلاق الحضر ، ودخلوا مثلهم في النصرانية ، بحكم تأثرهم بهم وبعوامل التبشير والسياسة ، الا أن نصرانيتهم كانت نصرانية أعرابية مكيفة بالعقيـــدة الوثنية الموروثة من السنين الماضية التي كونتها طبيعة البداوة في عقلية أهل الجاهلية .

وسوف نجد في بحثنا عن اللغة ، أن لغة (أهل المشارف) أو (أهل الضواحي) و (عرب الارياف) ، قد تأثرت بلهجات (إرم) العـــراق وبلاد الشام ، فظهرت في لغتهم رطانة ، وبرزت فيها ألفاظ ارمية وأعجمية ، وانحازت في النطق بعض الانحياز عن عربيات أهل البوادي ، وكتبوا بقلم نبطي وبلهجات عربيـــة ، لا تقرّها عربية القرآن الكريم ، التي صارت لسان الاسلام . ولهذا حذر علماء اللغة من الاستشهاد بشعر شعراء القرى والريف وأهل المشارف والضواحي ، لاعوجاج لسانهم بالنسبة الى لسان الاسلام .

فأعراب الضواحي ، أو عرب الضاحية ، هم أعراب أيضاً ، لكنهم لم يعزلوا أنفسهم عن العالم الخارجي ، وانما عاشوا على مقربة منه ومن مواطن الحضر ، فصار حالهم أحسن من حال الاعراب الأقحاح ، وارتفع مستواهم العقلي عن اولئك

---

١ اللسان (١٤/٤٧٤ وما بعدها) ، (ضحا) .
٢ تاريخ الطبري (٣/٣٥٣) ، (ذكر وقعة الولجة) .

المعنيين في حياة الاعرابية . بسبب اتصالهم بالأجانب وأخذهم عنهم واحتكاكهم بالحضر ، الذين هم ارقى من الاعراب بكثير . فأخذوا عنهم وتعلّموا منهم أشياء كثيرة ، من مادية ومعنوية . سأتحدث عنها في المواضع المناسبة من أجزاء هذا الكتاب .

وقد عرفت الارض التي تقع بين الفرات وبين بَرّيّة العرب بـ (العبر) قال علماء اللغة : (والعبر بالكسر ما أخذ على غربي الفرات الى بَريّة العرب) . لأنها المعبر الذي يعبر عليه للوصول الى البادية ، أو الدخول من البادية الى الفرات . وقد تكونت بها قرى عربية لعبت دوراً مهماً في تأريخ العراق لموقعها العسكري المهم ، ولأنها الخط الامامي الذي كان يواجه الاعراب الغزاة ومن كان يحكم بلاد الشام من حكام . ولكونه المنطلق الذي تنطلق منه الجيوش التي تريد غزو بلاد الشام ، أو صدّ القوات الزاحفة على العراق من الغرب .

والبـــداوة هي التي أمدت العراق وبلاد الشام وسائر جزيرة العرب بالحضر ، فقد كان الاعراب يأتون الحواضر وينيخون هناك ، ويستقرون ثم يتحولون الى حضر . لذلك تكون البادية المنبع الذي يغذي تلك الارضين بالعرب الحضر .

عبية الجاهلية :

ولقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن العقلية العربية بصفة عامة : عقلية العرب أي الحضر وعقليـــة الاعراب . وأعود في هذا الموضع الى الحديث عن عقلية الاعراب وما رماهم به أهل الحضر من الغلظة والجفاء والجهالة والعنجهية والكبر الى غير ذلك من نعوت عرفت عند العلماء بـ (عبية الجاهلية) . وذلك لما لهذه العبية من صلة بهذا الموضوع في هذا المكان .

واذا اردت الوقوف على عنجهية الجاهلية وتكبر سادات القبائل وعلى نظرتهم الى من هم دونهم في ذلك الوقت ، فخذ ما روي من قصة وقعت لمعاوية بن أبي سفيان على ما يرويه أهل الاخبار . فقد رُوي أن الرسول أمر معاوية بانزال (وائل بن حجر) الحضرمي منزلاً بالحـــرة ، فمشى معه ووائل راكب وكان

تاج العروس (٣/٣٧٧) ، (عبر) .

النهار حاراً شديد الحرارة . فقال له معاوية : ألق اليّ نعلك ، قال : لا ، اني لم اكن لألبسها وقد لبستها . قال فأردفني ، قال : لست من أرداف الملوك . : قال : ان الرمضاء قد أحرقت قدمي ، قال : لا يبلغ اهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك . ولكن ان شئت قصرت عليك ناقتي فسرت في ظلها . فأتى معاوية النبيّ ، فانبأه . فقال : (ان فيه لَعُبَيَّة من عُبَيَّة الجاهلية) . [1]

و (العُبَيَّة) الكبر والفخر . (وعُبيّة الجاهلية : نخوتها . وفي الحديث : ان الله وضع عنكم عُبَيَّة الجاهلية ، وتعظمها بآبائها ، يعني الكِبَر) . وقد وصفت (قريش) ونعتت بتكبرها حتى قيل : (هذه عُبَيَّة قريش) . [2] ونجد في القرآن الكريم اشارات الى عبية زعماء قريش وفخرهم على غيرهم بالآباء وبالأحساب وبأمور لا تستوجب فخر مفاخر ، لانها لا تتناول عمل انسان ليحمد أو ليذمّ عليه . وقد ذمها الاسلام ونهى المسلمين عن عبية الجاهليين .

ونظراً الى ما للبداوة من فقر وقساوة وغلظ في المعاش ، ومن ضيق أفق في المدارك وقصر نظر في شؤون هذا العالم الخارجي وفي فهم الحياة — نظر العربي الى الاعرابي نظرة استجهال وازدراء ، ونظر الى نفسه نظرة فيها علو واستعلاء . فورد أن الاعرابي اذا قيل له : يا عربي . فرح بذلك وهشّ له ، والعربي اذا قيل له : يا اعرابي ! غضب له . [3] لما بين الحياتين من فروق وتضاد . فقد جبلت البادية ابناءها على أن يكونوا غرباء عن العالم الحضر وعن عقلية أهل القرى والمدن . متغطرسين مغرورين على فقرهم وفقر من يحيط بهم . فخورين بأنفسهم الى حدّ الزهو والاعجاب والخروج عن الحدّ ، فكانوا اذا تكلموا رفعوا اصواتهم ، وظهرت الخشونة في كلامهم ، واذا تعاملوا مع غيرهم ظهر الحذر عليهم ، خشية الغدر بهم . ولهذا قال الحضر : (اعرابي جلف) ، أي جاف . [4] وفي الحديث : (من بدا جفا) ، أي غلظ طبعه لقلة مخالطة الناس . [5] وقالوا : (اعرابي قحّ) و (اعرابي قُحاح) ، وهو الذي لم يدخل الامصار ولم يختلط

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٩ وما بعدها) ، (وفد حضرموت) .
٢ تاج العروس (١/٥٧٤ وما بعدها) ، (عبب) .
٣ اللسان (١/٥٨٦) ، (صادر) ، (عرب) .
٤ تاج العروس (٦/٦٠) ، (جلف) .
٥ تاج العروس (٦/٧٤) ، (جفا) .

بأهلها . [1] ولهذه الخشونة التي خلقتها طبيعة البادية في الاعرابي ، وهو لا دخل له بها بالطبع ، كما انه لا يشعر بها ولا يرى أن فيه شيئاً منها ، كان العرب اذا تحدثوا عن شخص فيه عنجهية وخشونة ، قالوا عنه : فيه اعرابية . كالذي ذكروه مثلاً عن (عيينة بن حصن الفزاري) ، من أنه كان أحمق مطاعاً ، دخل على النبيّ من غير اذن وأساء الأدب فصبر النبي (على جفوته وأعرابيته) . [2] الى غير ذلك من نعوت تصف الاعرابي بالغلظ والقسوة والانانية وما شاكل ذلك من نعوت تحدثت عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وهي حاصل هذا المحيط الذي ولد فيه وعاش ، والظروف التي ألمت به ، فعزلته عن العالم الخارجي ، وأبعدته عن التحسس بتنوع مظاهر الطبيعة وبتغيرها ، فلم ير الثلج في حياته وهو يتساقط من السماء . ولم يتعود على رؤية الامطار وهي تتساقط عليه على نحو ما يقع في عالم أوربة أو في البلاد الحارة ذات الامطار الموسمية الواضحة ، حتى يستفيد منها في استغلال ارضه ، ولم تعطه الطبيعة انهاراً ومياهاً جارية ، الى غير ذلك من امور تحدثت عنها اثناء كلامي على العقلية العربية في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ووصف الاعرابي بالجهل ، بل بالجهل المطبق . فهو وثني ولكنه لا يفهم شيئاً من امور الوثنية ، وهو نصراني ، لكنه نصرانيّ بالاسم ، لا يعرف عن النصرانية في الغالب شيئاً ، وهو مسلم ولكنه لا يعرف عن الاسلام الا الاسم . ونجد في كتب اهل الاخبار والأدب قصصاً مضحكاً يمثل هذا الجهل الذي رُمي به الاعراب في بعضه حق وفي بعضه باطل لأنه موضوع حمل عليهم حملاً للانتقاص منهم وليكون قصصاً وتفكهةً وتسليةً يتسلى بها الحضر في مجالسهم في اثناء قتلهم للوقت .

وهو حقود ، لا يرى ان يغفر ذنب من اساء اليه . بل يظل في نفسه حاقداً عليه حتى يأخذ بثأره منه . (قيل لاعرابي : أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسيء الى من أساء اليك ؟ فقال : بل يسرني أن أدرك الثأر وأدخل النار) . [3]

ويذكر ان الرسول كان يميز بين الاعراب وبين البادية ، وهم الذين كانوا

١ تاج العروس (٢٠٢/٢) ، (قح) .
٢ تاج العروس (٤٥/٦) ، (الف) .
٣ نهاية الأرب (٦٧/٦) .

ينزلون أظراف القارة (القارية) وحولهم . فلما أهدت (أم سنبلة) الأسلمية لبناً الى بيت رسول الله ، أبت عائشة قبوله ، لأن الرسول قد نهى أهله عن قبول هدية اعرابيّ . وبينما كانت أم سنبلة في بيته ، دخل رسول الله ، فقال : ما هذا ؟ قالت عائشة : يا رسول الله ، هذه أم سنبلة أهدت لنا لبناً ، وكنت نهيتنا ان نقبل من أحد من الاعراب شيئاً . فقال رسول الله : خذوها ، فان أسلم ليسوا بأعراب ، هم أهل باديتنا . [1] ويفهم من هذا الخبر ، ان الرسول فرّق بين العرب البادية المقيمين حول (القارية) أهل الحاضرة ، الذين هم على اتصال دائم بالحضر ، وبين الاعراب ؛ وهم البادون البعيدون عن أهل الحواضر . وهم الذين نهى الرسول عن قبول هدية منهم . وذلك بسبب جفائهم على ما يظهر ولأنهم لا يهدون شيئاً الا طمعوا في ردّ ما هو أكثر منهم لغلظ معاشهم وضيق تفكيرهم . وآية ذلك ما ورد عنهم في القرآن الكريم .

فأهل البادية المجاورون للحضر أخف على النفس من الاعراب ، لتأثرهم بحياة الحضر . ولعل منهم من شارك أهل الحضر في التعاطي والتعامل . ونرى اهل الاخبار يروون ان أهل القرى كانوا اصحاب زرع ونخيل وفواكه وخيل وشاء كثير وإبل ، يقيم حولهم أناس بادون . كالذي كان حول مكة ويثرب والطائف وقرى الحجاز واليمن وغير ذلك ، فان هؤلاء لم يكونوا اعراباً اي بدواً صرفاً ، هجروا الحواضر وأقاموا في البوادي البعيدة ، بل هم وسط بين الحضر وبين الاعراب . فأخلاقهم ألين من اخلاق الاعراب وطباعهم أرق . ويمكن الاعتماد عليهم نوعاً ما ، بينما لا يمكن الركون الى قول اعرابي .

وقد بلغ من استعلاء الحضر على اهل البادية ، ان الاعراب لما أرادوا التسمّي بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا ، منعوا من ذلك ، فأعلموا ان لهم أسماء الاعراب لا أسماء المهاجرين ، وعليهم التسمّي بها . [2]

والاعراب أهل منة ، اذا فعلوا معروفاً بقوا يتحدثون عنه ، ويمنّون بصنعه على من قدموه له . وهم يريدون منه صنع اضعاف ما صنعوه له . وهم خشنون اذا تكلّموا رفعوا أصواتهم . وقد وبّخهم القرآن وأنّبهم لفعلهم هذا . فجاء فيه :

١ ابن سعد ، الطبقات (٨/٢١٥) .
٢ تفسير الطبري (٢٦/٩) .

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن اللهُ قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) [1] . وأمر المسلمين بالتأدب بأدب الاسلام . فقال : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك . ان انكر الاصوات لصوت الحمير .) [2] وقد كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون اصواتهم ، فوعظهم اللهُ ونهاهم عن ذلك) ، يقول تعالى ذكره (يا ايها الذين صدقوا اللهَ ورسوله لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت رسول الله تتجهموه بالكلام وتغلظون له في الخطاب) . [3]

وكان من خشونتهم وأعرابيتهم ان احدهم اذا جاء الرسول فوجده في حجرته نادى : يا محمد يا محمد ؟ وذكر ان وفداً من (تميم) وفد على رسول الله ، فوجده في حجرته ، ونادى منـاديه : اخرج الينا يا محمد ؟ فان مدحنا زين وذمّنا شين . او : يا محمد ! ان مدحي زين وان شتمي شين . فأنزل اللهُ : (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون . ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم . والله غفور رحيم) . [4]

وقد اتهم الأعرابي بماديته المفرطة وبطمعه الفظيع . فهو يحارب معك ، ثم ينقلب عليك ويصير مع خصمك ، اذا وجد ان في الجانب الثاني حلاوة ، وانه مستعد لاعطائه أكثر مما أعطيته . حاربوا مع الرسول ثم صاروا عليه وانتهبوا عسكره ، وجاؤوا اليه فعرضوا عليه الإسلام ، فلما أرادوا العودة الى بلادهم وهم مسلمون ، وجدوا رعاءً للرسول ، فانتهبوه وقتلوا حماته مع علمهم بأنه له ، وان انتهاب مال المسلم حرام ، فكيف بهم وهم ينتهبون مال رسول الله . وقد ندد القرآن الكريم بطمعهم في الآية : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا) . فهؤلاء قوم من بوادي العرب قدموا على النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، طمعاً في الصدقات ، لا رغبة في الإسلام ، فسمّاهم الله تعالى

١ الحجرات ، الآية ٢ وما بعدها .
٢ لقمان ، الآية ١٩ .
٣ تفسير الطبري (٢٦/٧٤ وما بعدها) .
٤ الحجرات ، الآية ٤ ، تفسير الطبري (٢٦/٧٦ وما بعدها) .

الأعراب . ومثلهم الذين ذكرهم الله في سورة التوبة ، فقال : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً)[1] . وذكر عن (قتادة) قوله : (قالت الأعراب آمنّا ، قل : لم تؤمنوا ، ولعمري ما عمت هذه الآية الأعراب . إنّ من الأعراب مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكن إنما أنزلت في حيّ من أحياء الأعراب امتنوا باسلامهم على نبيّ الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فقـال الله تعالى : لا تقولوا آمنّا ولكن قولوا أسلمنا)[2] . (وقال آخرون : قيل لهم ذلك لأنهم منّوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، باسلامهم . فقال الله لنبيّه ، صلى الله عليه وسلم ؛ قل لهـم لم تؤمنوا ولكن استسلمتم خوف السباء والقتل)[3] .

ولا يعرف الأعرابي شيئاً غير القوة ولا يخضع إلا لسلطانها . وبموجب هذه النظرة بنى أصول الحق والعدل ، وما يتبعها من حقوق . كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد . وهو فخور بنفسه متباه بشجاعته ، لكنه لا يصبر اذا طال القتال وجدّ ، ولا يتحمل الوقوف طويلاً في ساحة المعركة ، لا سيما اذا شعر ان القتال غـير متوازن ، وان أسلحة خصمه أمض وأقوى في القتال من أسلحته ، فيولي عندئذ الادبار ، ولا يرى في هروبه هذا من المعركة شيئاً ولا عيباً . وفي تأريخ معارك الجاهلية ولا سيما في معاركهم مع الأعاجم ومع القوات النظامية العربية أمثلة عديدة من هذا القبيل . ففي الحروب التي وقعت بين المسلمين والفرس أو الروم ، خذلت بعض القبائل المسلمين ، وتركتهم لما رأت جد القتال وان لا فائدة مادية ستحصل عليها منه . (وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لخم وجذام ، فلما رأوا جد القتال فرّوا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى ، وخذلوا المسلمين)[4] . فروا وهربوا لأنهم وجدوا ان القتال قد طال وانه قتال جد ، ولا قبل للقبائل على القتال الطويل الشديد الجد . فاختاروا الهروب دون ان يفكروا في عقدهم الذي عقدوه مع اخوانهم في الجنس على القتال معهم والاستمرار فيه حتى النهاية ، فإما نصر وإما هزيمة وموت وهلاك . ولكن طبيعة الأعراب لا تقيم

١ اللسان (١/٥٨٦) ، (عرب) .
٢ تفسير الطبري (٢٦/٩٠) .
٣ تفسير الطبري (٢٦/٩٠) .
٤ الطبري (٣/٥٧١) ، (دار المعارف) .

وزناً ولا تعطي أهمية للعقود في مثل هذه المواقف . إنْ رأت هواها في القتال قد تغيّر وتحول ، وان الأمل في كسب مغنم قد تضاءل ، انسحبت منه بعذر قد يكون تافهاً وبغير عذر أيضاً . وقد لا تنسحب ، وإنما تبدل الجبهة ، بأن تذهب الى الجانب الآخر فتحارب معه ، وتقاتل عندئذ من كانت تقاتل معه . لأنها وجدت ان الربح من هذا الجانب مضمون ، وان ما ستناله منه من فائدة أكثر . وذلك بعد مفاوضات سرية تجرى بالطبع . وهذا ما أزعج الروم والفرس ، وجعلهم لا يطمئنون الى قتال العرب معهم وفي صفوفهم ، فرموهم بالغدر . فكانوا اذا كلفوهم بالحرب معهم عهدوا اليهم القيام فيها بأعمال حربية ثانوية ، أو الانفراد بحرب الأعراب الأعداء الذين هم من أنصار الجانب الآخر . فقد حدث مراراً ان هرب الأعراب من ساحة القتال حين سعرت نار الحرب ، وارتفع لهيبها ، فأحدث هروبهم هذا ارتباكاً في جانب من كان يقاتلون معه أدى الى هزيمته هزيمة منكرة ، لما أحدثه فرارهم هذا من فجوة في صفوف المقاتلين . وقد أشارت الى هذه الحوادث مؤلفات الكتاب اليونان واللاتين .

وهو صارم عبوس ، اذا ضحك ضحك بقدر ، وكأنه يدفع بضحكته هذه ضريبة فرضت عليه . يكره الدعابة ، ويرى فيها تبذلاً لا يليق صدوره من إنسان كريم . بقي هذا شأنه حتى في الإسلام . فلما وصف (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري) (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) قال عنه : (كان امرءاً صالحاً ، وقد كانت فيه دعابة)[1] . حتى ان من العلماء من عَدّ (الدعابة) من الشوائب التي تنقص المروءة ، وتؤثر في صاحبها ، وتطعن فيه ، فلا تجعله أهلاً لأن يؤخذ عنه الحديث . أي جعلوه شخصاً غير موثوق به .

وقد بحث (غوستاف لبون) و (رينان) و (الأب لامانس) في عقلية الاعرابي . وما رأوه فيه من وجود (فردية) متطرفة عنده ، الى درجة تجعله يقيس كل شيء بمقياس الفائدة التي يحصل عليها من ذلك الشيء . ثم ما وجدوه فيه في الوقت نفسه من خوفه من الامعان في القسوة ، ومن الامعان في القتل ، لما يدركه من رد الفعل الذي سيحدث عند اعدائه ضده اذا تمكنوا منه ، ومن

١ نسب قريش (٢٧٨) .

نتائج الأخذ بالثأر . كما بحثوا عن ميل الاعرابي الى المبالغة . المبالغة في كلامه والمبالغة في اعطائه اذا أعطى ، والمبالغة في مدح نفسه ، والتباهي بشجاعته وبكرمه وبشدة صبره الى غير ذلك ، مع وجود تناقض فيه بالنسبة الى دعاويه هـذه . وهو يحب المديح كثيراً ، وهو على حدّ قولهم اذا اعطى ، صور ذلك غاية الجود ، وبالغ فيه ، ويظل يذكره في كل وقت ويحب ان يطرى عليه ، لا سيا اذا كان من شاعر وهو صحافي ومذيع ذلك الوقت[1] .

وللفوارق الموجودة بين العرب والأعراب ، بين الحضر وبين أهـل البوادي رأى (الأزهري) وجوب التفريق بين الاثنين . إذ قال : (والذي لا يفرق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ، ربما تحامل على العرب ، بما يتأوله في هذه الآية . وهو لا يميز بين العرب والأعراب . ولا يجوز ان يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، إنما هم عرب ، لأنهم استوطنوا القرى العربيـة ، وسكنوا المدن . سواء منهم الناشىء بالبدو ، ثم استوطن القرى والناشىء بمكة ، ثم هاجر الى المدينة . فان لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم واقتنوا نعماً ورعوا مساقط الغيث بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة . قيل : قـد تعربوا أي صاروا أعراباً بعد ما كانوا عرباً . وفي الحديث تمثل في خطبته مهاجر ليس بأعرابي . جعل المهاجر ضدّ الأعرابي . قال والأعراب ساكنو الباديـة من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا لحاجة . وقال أيضاً المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهـم وحكوا هيآتهم وليسوا بصرحاء فيهم . وتعربوا مثل استعربوا[2]) . وقد ذهب هذا المذهب (ابن خلدون) ، إذ رأى ان الأعراب يختلفون عن العرب . ولذلك فإن ما أشار اليه (ابن خلدون) من ان العرب اذا دخلوا بلداً أسرع اليه الخراب انما قصد به الأعراب . لا العرب الحضر .

ولكي نكون منصفين في الأحكام عادلين غير ظالمين علينا التفريق بين الأعراب وبين العرب . فما يقال عن الأعراب يجب ألا يتخذ قاعدة عامة تطبق على العرب . لما بين العرب والأعراب من تباين في الحياة وفي النفسية والعقل . ثم علينا لكي

١ المشرق عدد (٢) سنة ١٩٣٢ (ص ١٠١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١/ ٣٧١) ، (عرب) .

نكون منصفين أيضاً ان نفرق بين عرب وعرب . لما أصاب عرب كل أرض من أرض العرب من أثر تركه الأجانب فيهم ، ومن امتزاج الأعاجم في العرب ودخولهم فيهم واندماجهم بهم حتى صاروا منهم تماماً . والامتزاج والاندماج يؤثران بالطبع في أخلاق أهل المنطقة التي وقعا فيها ، أضف الى ذلك عوامل البيئة والمحيط . ولهذا يرى المرء تبايناً بيّناً بين عرب كل قطر ، تبايناً يلمسه حتى الغريب . فبين أهل العراق وأهل بلاد الشأم العرب ، تباين وفروق في الملامح الجسمية وفي المظاهر العقلية والاجتماعية وغيرها ، مع انهم جميعاً عرب يفتخرون بانتسابهم الى العروبة . وبين عرب العربية الجنوبية وبين عرب عالية نجد فروق واضحة جليّة . وهكذا قل عن بقية بلاد العرب . بل نجد هذا التباين أحياناً بين أجزاء قطر واحد . فاذا كان هذا هو ما نراه ونلمسه في الجاهلية وفي الإسلام ، فهل يجوز لأحد التحدث عن عقلية عامة جامعة تشمل كل العرب ؟

وقد أدرك المتقدمون علينا بالزمن اختلاف العرب في الصفات والشمائل ، فتحدثوا عن (حلم قريش) ، وعن لينها ورقة ذوقها وعن براعتها في التجارة ، وتحدثوا عن عمق تفكير أهل اليمن وعن اشتهارهم بالحكمة ، حتى قيل : الحكمة يمانية . وورد ان (علي بن أبي طالب) ، لما وافق على اختيار (أبي موسى الأشعري) ليكون ممثله في التحكيم ، قال له (أبو الأسود الدؤلي) : (يا أمير المؤمنين لا ترضَ بأبي موسى ، فإني قد عجمت الرجل وبلوته ، فحلبت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، مع انه يمان)[1] .

الحنين الى الأوطان :

ومع فقر البادية وغلظ معاشها وشحها ، فإن الأعرابي يحن اليها ، ولا يصبر عن فراقها حتى وان أخذ الى جنان الريف . قال الجاحظ : (وترى الأعراب تحن الى البلد الجدب ، والمحل القفر ، والحجر الصلد ، وتستوخم الريف)[2] . (واعتل أعرابي في أرض غربة ، فقيل له : ما تشتهي ؟ فقال : حسل

١ أمالي المرتضى (٢٩٢/١) .
٢ رسالة في الحنين الى الأوطان ، من (رسائل الجاحظ) (٣٨٨/٢) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

فلاة ، وحسو قلات)[1] . ويروى ان (ميسون بنت بحدل) الكلبية ، زوجة معاوية ، كانت تحن الى وطنها ، وقد سمعها زوجها وهي تنشد أبياتاً فيها شوق وحنين الى البادية ، فخيمتها التي تلعب الأرياح بها ، خير عندها وأحب لها من العيش في قصر منيف ، ورجل من بني عمها نحيف أحب اليها من (علج عليف) ، أي حضري سمين من كثرة الأكل[2] . وانتقل أعرابي من البداوة الى الحضارة ، فرأى المكاء في الحضر ، فقال مخاطبه : فارق هذا المكان ، فإنه ليس لك فيه الشجر الذي تعشش عليه ، وأشفق من ان تمرض كما مرضت[3] .

والعربي الذي ألف الحضارة وأمعن في الترف وتفنن في العيش بالمدن ، لا يفقه سحر البادية الذي يجلب اليه أهل البادية . لأنه يرى ان كل ما فيها ضيق وجوع وحرّ شمس وفقر . فيسخر من الأعرابي ويضحك عليه لحنينه الى باديته . ولما استظرف (الوليد بن عبد الملك) أعرابياً واستملحه ، فأبقاه عنده وسأله عن سبب حنينه الى وطنه أجابه جواباً خشناً ، مثّل جفاء الأعراب وصلفهم . فقال الوليد ، وهو يضحك : أعرابي مجنون[4] . ولم يتأثر منه ، لأنه أعرابي ، والأعرابي في حكم المجانين . وقد سقط حكم القلم عنه .

ويروي أهل الأخبار حديثاً لكسرى أنوشروان مع وفد وفدَ عليه فيه بعض خطباء العرب . فسألهم عن سبب تفضيلهم السكن بالبادية وعن حياتهم بها وعن طبائعهم الى غير ذلك من أسئلة وأجوبة دوّنوها على انها اسئلة كسرى وأجوبة العرب عليها[5] . وفيها أمور مهمة عن حياة الأعراب . وقد يكون الخبر قصة موضوعة ، غير اننا لا ننظر اليها من جهة تأريخية ، إنما نأخذها مثالاً على ما كان يدور في خلد من صنعها عن نفسية الأعراب وعن نظرة الحضر الى أهل البوادي .

وللمسعودي كلام في اختيار العرب سكنى البادية وسبب ذلك ، كما تحدث

١ المصدر المذكور (٢/٣٩٠) .
٢ بلوغ الأرب (٣/٤٢٦ وما بعدها) .
٣ بلوغ الأرب (٣/٤٢٨) .
٤ رسالة في الحنين الى الاوطان (٢/٣٩٧) .
٥ بلوغ الأرب (٣/٤٣٣) .

عن أثر البوادي في صحة أجسام العرب وفي تكوين أخلاقهم ، مما جعلهم يختلفون بذلك عن بقية الناس .

والعرب وإن عرفوا بالترحل والتنقل ، بسبب البداوة ، إلا انهم يحنون الى أوطانهم ، ولا ينسون موطنهم القديم . يستوي في ذلك العربي والأعرابي . وهم يرون ان في الغربة كربة ، وان الانسان اذا صار في غير أهله ناله نصيب من العذل[1] . (وكانت العرب اذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع)[2] . (وقيل لأعرابي : كيف تصنع في البادية اذا اشتدّ القيظ وانتعل كل شيء ظلّه ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ، يمشي أحدنا ميلاً فيرفضّ عرقاً ، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه ، ويجلس في فيئه يكتال الريح ، فكأنه في ايوان كسرى)[3] .

وجاء ان (الوليد بن عبد الملك) استظرف أعرابياً فاحتسبه عنده وحباه ، فمرض فبعث اليه (الوليد) بالأطباء ، وعالجوه ، ورأى من الخليفة كل رعاية . لكن هواه بقي في وطنه ، ولم يطق على هذه المعيشة الراضية الطيبة صبراً ، فهلك بعد قليل[4] . الى غير ذلك من قصص وشعر ورد في الحنين الى الأوطان ، وفي تفضيل الوطن على كل منزل آخر ، ولو كان آية في الجمال ومثالاً من الراحة والاطمئنان .

وهو يعجب من لغة اهل الحضر ، ولا سيما حضر ريف العراق وريف بلاد الشام ومن الاكرة الذين لا يفهم عنهم ولا يستطيع افهامهم ، فكان يجد نفسه وكأنه في سجن مطبق ، يريد الخلاص منه . حدث ذلك حتى في الاسلام ، وقد ذكر (ابو عثمان الجاحظ) ، انه رأى اعرابياً ، وكان عبداً حبشياً لبني أسيد ، وقد صار (ناظوراً) ، وكأنه اصيب بمس من الجن ، فلما رآه ، قال له : لعن الله ارضاً ليس بها عرب[5] .

١ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/٣٩٠ وما بعدها) .
٢ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/٣٩٢) .
٣ المصدر نفسه .
٤ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/٣٩٧ وما بعدها) .
٥ رسائل الجاحظ (٢/٤٠٣ وما بعدها) .

حياة الاعراب :

وحياة الاعراب حياة تكاد تكون حياة واحدة لا تغير فيها ولا تبدل ، فهي على وتيرة واحدة . على تعدد القبائل ، وابتعاد مواضع بعضها عن بعض . ذلك لأن الظروف المخيمة عليهم ، ظروف واحدة لا اختلاف فيها ولا تبدل . الا ما كان منها بالنسبة الى اعراب الضواحي والحواضر ، فان ظروفهم تختلف عن هؤلاء ، ومجال تفكيرهم اوسع من مجال تفكير الاعراب . بسبب نوع المعيشة المتغير ، المتصل بالارض ، وقربهم من الحضر . ولو درسنا حياة القبائل في الجاهلية ، وجمعنا دراستنا من المرويّ عنها في الكتب ، وجدنا ان بين الماضي البعيد وبين الحاضر شبهاً في نمط الحياة ، وان ما ذكرته عن قبائل الجاهلية يكاد ينطبق على حياة قبائل البادية في وقتنا هذا ، ذلك لأن الظروف والمؤثرات بالنسبة الى حياة الاعراب المعنين في البادية لا تزال كما كانت عليه . ولكنها سوف لن تبقى على ما هي عليه والى أبد الآبدين بالطبع ، لأن التقدم الحضاري والاكتشافات المادية ، قد اخذت تغزو الاعراب وتضيق الخناق عليهم ، لتغير من حالهم . فبعد ان كان البدو قوم غزو ، أكرهتهم الحكومات القوية على الابتعاد عن الغزو ونبذه ، حتى اضطروا الى توديعه الى الأبد او كادوا وصاروا مغزوّين ، تغزوهم الحضارة الحديثة والآليّات بما لا قبل لهم بمقاومته ، لتفوق الغزو الجديد عليهم . وهم سيكونون ولا شك بمرور الوقت على شاكلة النصف الآخر من العرب . أي اخوانهم الحضر . يوائمون انفسهم مع التطور الجديد . وسوف يبدل هذا من حياتهم ولا شك ، ومن اهم ما سيفعله فيهم ، تحويل حياتهم من حياة غير مرتبطة بالارض ، الى حياة ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فتتحول البداوة عندئذ الى حضارة ، وسيشعر الاعرابي عندئذ انه مواطن له ارض ووطن وقوم هم إخوة له يشعرون بشعوره . وأن من يعزل نفسه عن العالم ، فلن يعزل بذلك الا نفسه ، ولن يُضر الا بصالحه . وان الانسان بغير عمل ولا انتاج ، انسان تافه لا قيمة له . وأن العنتريات والعُبَيّة الجاهلية من جملة مؤخرات الحياة في كل الأزمنة والأوقات .

ملامح العرب :

والعرب وان كانوا من الجنس السامي ، الا انهم يختلفون عن بقية (ابناء سام) في الملامح الجسمانية وفي فصائل الدم ، وفي امور اخرى . ذلك لأن السامية ،

كما سبق ان قلت – جنسية ثقافية ، اما من الناحية (البيولوجية) وهي تتعلق بالملامح وبأمور بيولوجية اخرى فليست بجنسية خاصة يمكن تمييزها من بين قبائل الاجناس البشرية ، لما نراه فيما بين شعوبها من تباين . ثم ان بين العرب انفسهم ، تبايناً واختلافاً في الملامح ، بسبب قرب العرب وبعدهم من الأعاجم ، وأثر فعل الرقيق والأسرى في امتزاج الدم بينهم ، ثم اثر فعل الطبيعة وعملها في الانسان ، وما تقدمه له من غذاء ونوع ماء وحرّ وبرد ومطر وضغط جوّي ونوع تربة .

واليهود هم من الجنس السامي ، جنس خليط كذلك في القديم وفي الحديث فقد دخل اليهود دم غريب ايضاً ، ونجد في التوراة وفي اسفار المكابيين والكتب العبرانية الاخرى ، اكراه اليهود للشعوب التي استولوا على ارضها على التهود . فدخلت في اليهـــودية ، وهي ليست من اصل يهودي ، وصارت من يهود وقد دخلت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث كعب وكندة ، وهم من العرب .[1] ودخل آخرون في اليهودية ، وصاروا يهوداً فاليهود مثل غيرهم ، فيهم اليهودي الخالص ، وفيهم اليهودي الغريب ، وفي ملامحهم المتباينة ما هو دليل على وجود الاختلاط في الدم .

وأنا اذ اتكلم عن ملامح العربي ، فإني لا ازعم ان لديّ او لدى الباحثين مقاييس خاصة ثابتة نستطيع ان نقيس بها ملامح العرب ، بحيث نحددها في حدود ونرسم لها رسوماً ، لا تتعداها ولا تتخطاها . فحدود مثل هذه لا يمكن ان توجد ولا يمكن ان ترسم ، لأن بين العرب تبايناً وتنابزاً في الصور وفي الملامح بحيث يكون من الصعب علينا وضع حدود ثابتة لملامح العرب ، يخضع لها كل العرب او اكثرهم . وسبب ذلك اتساع جزيرة العرب ، ووجود سواحـــل طويلة جداً تقابل قارتين : قارة سوداء هي افريقية ، وقارة اخرى هي آسية ، لون بشرة سكان سواحلهـــا الجنوبية الشرقية السواد والسمرة الغامقة . وهي سواحل مفتوحة غذّت جزيرة العرب بعناصر ملوّنة اختلط دمها بالدم العربي حتى اثر ذلك اللون في سحن الناس هناك فبان السواد او اللون الداكن على السواحل العربية المقـــابلة لسيلان وللهند . وظهرت الملامح الافريقية على سحن الساحل الغربي لجزيرة العرب من تهامة فيما بعد حتى ساحل عمان . وظهرت سحن وملامح اقوام بيض من روم

١ الأعلاق النفيسة (٢١٧) .

ورومان وأهـــل فارس في مواضع اخرى من جزيرة العرب ، بسبب سياسة الحكومات القـاضية بالتهجير نكاية بالمهجرين ، او بسبب تنقـلات الجيوش والحروب ، او التجارة ، او الخطط العسكرية القاضية بحماية المصالح الاقتصادية . وذلك بوضع حاميات عسكرية على سواحل الجزيرة لحماية السفن من غارات الاعراب ولصوص البحر . ثم يحدث ان تنقطع الاسباب برجال تلك الحاميات ، وتنقطع صلاتهم بالأم لعوامل عديدة ، فيستقرون في مواضعهم ويتعربون حتى صاروا عرباً . نسوا أصلهم وعدّوا من خلص العرب . ولكن العرق دساس كما يقول الناس ، فبقي أثره بارزاً ظاهراً عـــلى الوجوه ، نراه حتى اليوم في تغاير وتمايز سحن سكان السواحل فيما بينها ، وفي تغايرها عن سحن أهل باطن جزيرة العرب تغايراً ملحوظاً . وقد أشرت في كتابي (تأريخ العرب قبل الاسلام) وفي الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب الى أثر المستعمرات اليونانية في سحن العربُ ، كما هو الحال في جزيرة (فيلكة) في الكويت والى أثر الرقيق والتجارة في باطن جزيرة العرب مما يجعلني في غنى عن اعادة الكلام عن ذلك مرة اخرى .

وقد ذكر اهل الاخبار ان الروم سكنت في الجاهلية جبل (ملكان) وهو جبل في بلاد طيء .[1] فلا يستبعد بقاء هؤلاء فيه وسكنهم فيه ، وتحولهم الى عرب بتعربهم كما تعرب غيرهم من اليونان ممن نزل المستوطنات اليونانيـــة في بلاد العرب .

ونجد بمكة ويثرب وبمواضع اخرى من جزيرة العرب موالي اصلهم من الفرس او الروم برز منهم بعض الصحابة مثل : (سلمان الفارسي) و (رومان الرومي) ، وهو من موالي الرسول ،[2] وغيرهم . وقد ترك هؤلاء الموالي اثراً في ملامح الناس ولا شك .

ثم يلاحظ ان اجسام سكان السواحل اقصر من اجسام ابناء الجبال والنجاد . وان اهل التهائم والسواحل الجنوبية لجزيرة العرب اقصر قامة من اهل نجـــاد اليمن او اهل نجد . كما نجد اختلافاً بين ملامح القبائل لا زال بارزاً حتى اليوم . اختلافـاً يتحدث عن طبيعة الامتزاج الذي وقع في الدم في ايام الجاهلية ايضاً ،

---

١ تاج العروس (٧/١٨٤) ، (ملك) .
٢ تاج العروس (٨/٣٢٠ ، (روم) .

لاختلاط الدماء وامتزاجها بالعوامل التي ذكرتها ، وان ذهب البعض الى ان جزيرة العرب كانت في عزلة عن العالم ، فهذه العزلة التي يتحدثون عنها ، هي عزلة لم تكن عامة ولا يمكن ان نسميها عزلة صحيحة الا بالنسبة للقبائل المتبدية التي عاشت في صميم البوادي ، غير ان تلك القبائل لم تتمكن مع ذلك من عزل نفسها عن الرقيق والأسرى الغرباء .

ثم نجد فروقاً بين العرب والاعراب ، سببه اختلاف المحيط والظروف والغذاء . فالعربي ممتلىء الجسم بالقياس الى الاعرابي الرشيق القليل اللحم ، الدقيق العظم . وتظهر هذه النحافة في وجه الاعرابي ايضاً ، فوجهه ممشوق قليل اللحم ، دقيق ممتد ذو ذقن بارز ، وأنف دقيق ، وعينان براقتان . وتعد الرشاقة في جسم العربي من محاسنه لأنها تجعله معتدل القوام . خفيف الحركة . وقد مدح (امرؤ القيس) الغلام الخف ، اي الخفيف الجسم ، السريع الحركة الذي ينزل عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل . اي الثقيل الجسم السمين . وقيل : الخفيف في الجسم والخفاف في التوقد والذكاء . [1] ويعد ثقل الجسم من المعيبات . ومن المجاز التخفيف ضد التثقيل والخفيف ضد الثقيل . وقد اعتبروا الثقل ذماً في الانسان . فقيل : هو ثقيل على جلسائه ، وهو ثقيل الظل ، ويقال مجالسة الثقيل تضني الروح ، حتى ألف بعض العلماء في اخبار الثقلاء . [2]

و (الربع) من الرجال ، اي المتوسط القامة ، النموذج الأوسط للانسان وحدّ الكمال في الجسم عند العرب . ويقال له : (ربعة) و (مربوع) . وقد نعت رسول الله بأنه (ربعة) من الرجال ، وورد أنه كان أطول من المربوع وأقصر من المشذب . [3] والوسط عند العرب هو بين الجيد والرديء . وأوسط الشيء افضله وخياره . ومنه الحديث : خيار الامور اوساطها . [4] وقد هابت العرب اصحاب الطول في الجسم ، والكبر في الرأس ، واحترموا اصحاب الهيبة والتأثير في النفس ، وقد ذكر بعض منهم في كتب اهل الاخبار . وقد رموا القصير

١ تاج العروس (٦/٩٢ وما بعدها) ، (خفد) .
٢ (قال الراغب : الثقيل في الانسان يستعمل تارة في الذم وهو أكثر في التعارف . وتارة في المدح) ، تاج العروس (٧/٢٤٥) ، (ثقل) .
٣ تاج العروس (٥/٣٣٨) ، (ربع) .
٤ تاج العروس (٥/٢٤٠ وما بعدها) ، (وسط) .

بالمكر والخديعة ، ولكنهم اعتبروا القصر في الجسم من العيوب ، لا سيما اذا كان ذلك القصير غليظ البطن . وقد عرف الانسان الموصوف بهذه الصفة بالدحداح وبالداح وبالدودح وبالذحذاح [1] . والدودحة القصر مع السمن [2] . وأما (الدرحاية) ، فالرجل الكثير اللحم القصير السمين البطين ، اللئيم الخلقة . وعرف الرجل المسنّ الذي ذهبت أسنانه بـ (الدردح) [3] .

واعتبر العرب طول العنق من سمات المدح . ولذلك وصف رؤساء العرب بطول العنق . وعبّر عن الرؤساء والكبراء والأشراف بـ (الأعناق) و (أعناق). وعبّر عن الجماعة الكثيرة بـ (الأعناق) كذلك [4] . وذكر الشاعر (عروة بن الورد) عنق الآرام في شعر له في وصفه للناشئات الماشية بتبختر . إذ قال :

والناشئات الماشيات الخوزرى كعنق الآرام أوفى أو صرى [5]

والعرب مثل غيرهم لا يحبون الصلع . ويكثر ظهوره بين العجزة والمسنين والأشراف . وقد ذكر ان أكثر الأشراف من العرب كانوا من الصلع ، وتفسير ذلك ان أكثر الأشراف هم من ذوي الأسنان ، وان الإنسان إذا تقدمت به السن ، أخذ الصلع يجد له مكاناً في رأسه فيلعب فيه . ومن ذلك قول الناس يوم بدر : (ما قتلنا إلا عجائز صلعاً) أي مشايخ عجزة عن الحرب . وأنشد (ابن الاعرابي) : (يلوح في حافات قتلاه الصلع) أي يتجنب الأوغاد ولا يقتل إلا الأشراف [6] .

وهم يفضلون (الأفرع) على الأصلع . والأفرع هو الكثير الشعر . وكان (أبو بكر) أفرع ، وكان عمر أصلع . وكان رسول الله أفرع ذا جمة [7] . والصلع خير من (القرع) ، لأن القرع داء يصيب الرأس ، فيؤثر في منظره

١ تاج العروس (٢/١٣٥) ، (دح) .
٢ تاج العروس (٢/١٣٦) ، (دودحة) .
٣ تاج العروس (٢/١٣٦) ، (دردح) .
٤ تاج العروس (٧/٢٦) ، (عنق) .
٥ اللسان (٤/٢٣٧) ، (خزر) .
٦ تاج العروس (٥/٤١٦) ، (صلع) .
٧ تاج العروس (٥/٤٤٩) ، (فرع) .

ويسبب سقوط شعره وحدوث أثر دائم فيه ، وقد تنبعث رائحة كريهة منه[1] . وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الأشراف عرفوا بقرعهم .

وقد اشتهر بعض العرب بطول القامة ، حتى زعم ان بعضاً منهم كان اذا ركب الفرس الجسام خطت ابهاماه في الارض . وذكروا من هؤلاء : (جذيمة ابن عاقمة بن فراس) ، المعروف بـ (جذل الطعان) الكناني ، و (ربيعة بن عامر بن جذيمة بن علقمة بن فراس) ، وكان يماشي الظعينة فيقبلها ، فسُمّي (مقبل الظعن) . و (زيد الخيل بن المهلهل الطائي) ، و (أبو زيد حرملة ابن النعمان الطائي) ، وعديّ بن حاتم بن عبد الله الطائي ، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، وأبوه سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وعبد الله بن أبَـي ابن سلول ، وبشير بن سعد ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وجبلة بن الأيهم الغساني ، وحمـل بن مرداس النخعي ، ومالك الأشتر بن الحـارث النخعي ، وعبد الله بن الحصين ذي الغصة الحارثي ، وعامر بن الطفيل الجعفري ، وقيس ابن سلمة بن شراحيل بن أصهب الجعفي[2] .

العرب أفخر الأمم :

يرى الجاحظ ان العرب أفخر الأمم ، وأرفعها وأحفظها لأيامهـا ، وينسب ذلك الى طبيعة بلادهم . إذ (كانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغَمق ولا اللثق ، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ، ولا التخم ، أذهان حداد ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدّهم ووجهوا قولهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافـة الأثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرّف الأنواء ، والبصر بالخيل وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية . وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم أرفع من جميع الأمم وأفخر ، ولأيامهم أحفظ وأذكر)[3] . وهم

١ تاج العروس (٥/٤٦٣) ، (قرع) .
٢ المحبر (ص ٢٣٣ وما بعدها) .
٣ مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (١/٧٠) .

لطبيعة الأرض التي ولدوا بها صاروا على هذه الحال ، ولم يصيروا كاليونان في الحكمة وفي العلوم ، ولا كالصين في السبك والصياغة والإفراغ والاذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير ، ولا كالهنود أو الفرس [1] .

وقد وصف الأعرابي بالتفاخر وبالتباهي ، فهو فخور معجب بنفسه مترفع عن غيره حتى لكأنه النمر . مع انه من أفقر الناس . ولهذا صاروا اذا أرادوا وصف شخص متغطرس متجبر مع انه لا يملك شيئاً يفوّق به نفسه على غيره ، قالوا عنه : (نبطيّ في حبوته . أعرابي في نمرته ، أسد في تامورته) . [2]

العجـــم :

ويطلق العرب على غيرهم ممن لا ينتمون الى العرب ، لفظة (أعاجـــم) . و (العجم) عندهم خلاف العرب . والرجل الواحد (أعجمي) . ولعلماء اللغة آراء في تفسير هذه اللفظة [3] . وهي من الألفاظ الجاهلية ، لورودهـــا في القرآن الكريم . ففيه : (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي) [4] . و (أأعجمي وعربي . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) [5] ، و (لو جعلناه قرآناً أعجميّـــاً ، لقالوا لولا فصلت آياته) [6] ، و (لو نزلنـــاه على بعض الأعجميين فقرأه عليهـــم ما كانوا بـــه مؤمنين) [7] . ففي هذه الآيات دلالة واضحة على ان المراد من (أعجمي) خلاف العربي ، وان هذا المصطلح كان معروفاً عند العرب قبل الإســـلام .

ويطلق العرب على العجم (الحمراء) لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم . وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبـــاً على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم : انهم الحمراء . والعرب اذا قالوا : فلان أبيض

١ مناقب الترك من رسائل الجاحظ (٦٦/١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥٨٥/٣) ، (نمر) .
٣ تاج العروس (٣٨٩/٨ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٢٩/٣) .
٤ النحل ، الآية ١٠٣ .
٥ فصلت ، الآية ٤٤ .
٦ فصلت ، الآية ٤٤ .
٧ الشعراء ، الآية ١٩٨ .

وفلان بيضاء ، فمعناه الكرم في الأخلاق لا لون الخلقة . واذا قالوا : فلان أحمر وفلانة حمراء عنوا بياض اللون . والعرب تسمي الموالي : الحمراء[1] . جاء في الحديث : (بعثت الى الأحمر والأسود) ، أي الى العجم والعرب كافة[2] .

وورد ان العرب تقول : جاء بغنمه حمر الكلى وجاء بها سود البطون ، معناهما المهازيل . وهو مجاز[3] . ويذكرون ان معنى حمر الكلى الامتلاء والسمن ، والسواد بمعنى الهزال والرشاقة . ولما كان الأعاجم ممتلئي الجسم بالنظر الى العرب ، قالوا لهم (الحمراء) . وقد كان العرب يطلقون على الموالي (الحمراء) ، واذا سبّوا أحدهم قالوا ، (يا ابن حمراء العجان أي يا ابن الأمة . كلمة في السب والذم[4]) . ولعلّهم فعلوا ذلك بسبب امتلاء أجسام الموالي ولا سيما العجان ، الذين لا يتحركون ولا يتنقلون من أماكنهم ، ويأكلون الخبز فامتلأت لذلك بطونهم وتكرشوا .

ولم يشرح علماء العربية الاسباب التي حملت العرب على تلقيب العجم بـ (رقاب المزاود) (رقاب المزود)[5] . وقد ذكر بعض العلماء ، ان العرب إنما لقبت العجم بـ (رقاب المزاود) ، لطول رقابهم أو لضخامتها كأنها ملأى[6] .

ويكنى العرب بـ (السبط) عن العجمي وبـ (الجعد) عن العربي[7] . وذلك لان سبوطة الشعر مي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب . ولكنهم كانوا يفرقون بين جعودة شعر العرب وجعودة شعر الزنج والنوبة . لانهم ينظرون الى الزنج والسود على انهم دونهم في المنزلة والمكانة . ولهذا قالوا ان العرب تمدح الرجل إذْ تقول رجل جعد ، أي كريم جواد كناية عن كونه عربياً سخياً ، لان العرب موصوفون بالجعودة ، وتذم الرجل أيضاً حين تقول : رجل جعد ، إذْ يقصدون بذلك

١ اللسان (٤/٢١٠) ، (حمر) ، تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٣ تاج العروس (٣/١٥٨) .
٤ تاج العروس (٣/١٥٨) .
٥ اللسان (ز/و/د) ، (٣/١٩٨) .
٦ تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (زاد) .
٧ تاج العروس (٥/١٤٩) ، (سبط) .

رجلاً لئيماً لا يبض حجره ، وقد يراد به رجل قصير متردد الخلق . فهو من الأضداد . لذلك فالجعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذماً . واذا قالوا رجل جعد السبوطة فمدح ، الا ان يكون قططا مفلفل الشعر فهو حينئذ ذم[1] .

ومن المجاز قول العرب : الأعداء صهب السبال وسود الأكباد ، وان لم يكونوا كذلك ، أي صهب السبال ، فكذلك يقال لهم . ورد في الشعر :

جاؤا يجرون الحديث جرّاً صهب السبال يبتغون الشرّا

وانما يريدون ان عداوتهم كعداوة الروم . والروم صهب السبال والشعر ، والا فهم عرب والوانهم الأدمة والسمرة والسواد[2] .

ويذكر علماء اللغة ان العرب تصف ألوانها بالسواد ، وتصف ألوان العجم بالحمرة . وقد افتخر الشعراء بذلك في الجاهلية وفي الإسلام . من ذلك قول الفضل بن عباس بن عتبة اللهبي :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول : أنا خالص لأن ألوان العرب السمرة . ومن ذلك قول مسكين الدارمي :

أنا مسكين لمن يعرفني لوني السمرة ألوان العرب[3]

قال (الجاحظ) : (والعرب تفخر بسواد اللون .. وقد فخرت خُضر محارب بأنها سود ، والسود عند العرب الخضر) . ثم ذكر أمثلة من أمثلة افتخار بعض القبائل والأشخاص بكونهم (خضراً) . حتى قال : (وخضر غسان بنو جفنة الملوك ؟ قال الغساني :

إن الخضارمة الخضر الذين وَدَوا أهل البريص ثمانى منهم الحكم

وقد ذكر حسان أو غيره الخضر من بني عُكيم ، حين قال :

ولستَ من بني هاشم في بيت مكرمة ولا بني جمحٍ الخضر الجلاعيد

١ تاج العروس (٢/٣٢٠ وما بعدها) ، (جعد) .
٢ تاج العروس (١/٣٤٢) ، (صهب) .
٣ تاج العروس (٣/١٧٩ وما بعدها) ، (خضر) ، رسائل الجاحظ ، كتاب فخر السودان على البيضان (١/٢٠٧) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة دُلماً ضخماً ، نظر اليهم عامر ابن الطفيل يطوفون كأنهم جمال جون ، فقال : بهؤلاء تمنع السدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلم ضخماً ، وآل أبي طالب أشرف الخلق ، وهم سود وأدم ودلم)[1] .

واشتهر بعض سودان العرب بالشجاعة والاقدام ، منهم أربعة عرفوا بـ (أغربة العرب) وذؤبان العرب . منهم : عنترة وخفاف بن ندبة السلمي ، سرى فيه السواد من قبل أمه ، وهو من حرّة بني سليم . أدرك النبي ، وكان شاعراً شجاعاً ، وقل ما يجتمع الشعر والشجاعة في واحد . ومنهم السليك بن السلكة[2] .

وهناك قبائل غلب على لونها السواد ، حتى عبر عنها بـ (دلم) . والدلم الرجل الشديد السواد[3] . جاء اليها السواد ، لكون أصلها من افريقية على ما يظهر ، وكانت قد استقرت بجزيرة العرب وتعربت ، حتى عدت من العرب . أما الأسر والأفراد الدلم ، فقد ظهر السواد على لونهم بالتزاوج من الملونين . فقد كان من عادة الأشراف الاتصال بالإماء السود ، فاذا ولدن منهم أولاداً نجباً شجعاناً ألحقهم آباؤهم بهم ، ونسبوهم اليهم كالذي كان من أمر عنترة العبسي . وقد مال قوم من قريش الى التزوّج بالإماء السود ، وقد ظهرت هذه النزعة بين السادات والأشراف .

وقد ذكر (الجاحظ) في معرض حجج السودان على البيضان ، وعلى لسان الزنج قولهم للعرب : (من جهلكم أنكم رأيتمونا لكم أكفاء في الجاهلية في نسائكم ، فلما جاء عدل الإسلام رأيتم ذلك فاسداً ، وما بنا الرغبة عنكم . مع ان البادية منا ملأى ممن قد تزوج ورأس وساد ، ومنع الذمار ، وكنفكم من العدوّ)[4] . وفي هذا القول اشارة الى التزاوج الذي كان بين العرب والزنج ، أي السودان المجلوبين من افريقية ، في أيام الجاهلية . والى انصراف العرب عنه

١ فخر السودان ، للجاحظ (٢٠٧/١ وما بعدها) ، من (رسائل الجاحظ) ، تحقيق عبد السلام هارون) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٥٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢٩٢/٨) ، (دلم) .
٤ من رسائل الجاحظ (١٩٧/١) .

في الإسلام ، مـا خلا البادية ، وذلك بسبب اقبالهـم على التزوج بالفارسيات والروميات وبغيرهن على ما يظهر ، بسبب الفتوح وتوسع أسواق النخاسة في هذا الوقت . وارتفاع مستوى الوضع الاقتصادي للعرب في الإسلام عنه في الجاهلية ، مما مكنهم من التزوّج بالأجنبيات البيض الجميلات وتفضيلهن على السودانيات . وظهور نظرة الازدراء الى السودان في الإسلام ، بسبب الأعاجم المسلمين الذين كانوا يزدرون العبيد وينظرون اليهم على انهم دونهم في المنزلة ، فانتقلت هـذه النظرة منهم الى العرب .

ويظهر من رسالة الجاحظ : (فخر السودان على البيضان) ، ان نزاعاً كان قد دبّ بين السودان والعرب في الإسلام ، بسبب نظرة الازدراء التي أخذ الفاتحون ينظرون بها اليهم فصاروا يترفعون عنهم ولا يخالطونهم . وهذا مما أغاضهم ، وحملهم على نبش الماضي ، والاتيان بالأخبار وبالأشعار عن دور الحبش في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وكيف انهم كانوا قد ملكوا (بلاد العرب من لدن الحبشة الى مكة)[1] ، وهزموا ذا نواس ، وقتلوا أقيال حمير ، فملكوا العرب ولم يملكهـم العرب[2] . الى غير ذلك من دعاوي تجدها في قصيدة الشاعر الزنجي (الحيقطان) ، التي يفتخر فيها بالحبش على العرب ، على نحو فخر الشعوبية بأصولهم على العرب . وهي قصيدة شهيرة ، قالها يوم سمع (جرير) يسخر منه بشعر قاله في وصفه . فرد عليه رداً شديداً بقصيدته هذه التي نظمها وهو باليمامة[3] .

وقد عُرفت بعض القبائل ببياض بشرتها ، واشتهرت نساؤها ببياض البشرة ، ورد (في الحديث انه لما خرج من مكة قال له رجل : إن كنت تريـد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج)[4] . ويقال للمرأة التي يغلب على لونها البياض (الحمراء) ، وقد لقب الرسول زوجته (عائشة) بـ (الحميراء) ، لبياض لونها .

١ رسائل الجاحظ (١/١٩٣ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه .
٣ رسائل الجاحظ ١/١٨٠ ، ١٨٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٨/١٨١ وما بعدها) ، (أدم) .

القبيـــلة :

والقبيلة هي عماد الحياة في البادية ، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله ، حيث لا (شُرَط) في البوادي تؤدب المعتدين ، ولا سجون يُسجن فيهـــا الخارجون على نظام المجتمع ، وكل مـــا هناك (عصبية) تأخذ بالحق و (أعراف) يجب ان تطاع .

والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو (النسب) . ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبدم واحـــد وبصلب جدّ أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم . ولهذا نجد أهل الأنساب يرجعون نسب كل قبيلة الى حدّ أعلى ، ثم يرجعون أنساب الجدود ، أي أجداد القبائل الى أجداد أقدم ، وهكذا ، حتى يصلوا الى الجدّين للعرب : قحطان وعدنان .

وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل ، لم يعرف أسماء أكثرها أهل الأخبار . وهي تفيدنا من هذه الناحية فائدة كبيرة في الوقوف على هذه القبائل ، وبعضها كان قد هلك وانحلّ واختلط في القبائل الأخرى قبل الميلاد وبعضها بعد الميلاد وقبل الإسلام بأمد .

وتتألف القبيلة من بيوت ، يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة ، وباختلاف المواسم . ففي مواسم الربيع ، تضطر أحياء القبيلة على الانتشار والابتعاد ، لتتمكن إبلها من الرعي ومن املاء بطونها بالعشب . فتتجمع على شكل مستوطنات يتراوح عدد بيوت كل مستوطنة منها ما بين الخمسين والمائة والخمسين بيتاً . أمـــا في المواسم الأخرى ، حيث تنحبس الأمطار وتجف الأرض ، فتعود أحياء القبيلة الى تكتلها وتجمعها ، فتكون كل مجموعة حوالى (٥٠٠) بيت أو أكثر . تتجمع حذر وقوع غزو عليها ، وللتعاون فيما بينها عند الشدة والعسر [١] .

والقبيلة في عرف علماء اللغة جماعة من أب واحد ، والقبائل في نظرهـــم من قبائل الرأس لاجتماعها ، أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها [٢] ، فهي إذنْ جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها ، وهي تنتمي كلها الى أصل واحـــد وجذر

---

١ W. Caskel, Die Bedeutung der Beduinen, S., 8.

٢ تاج العروس (٨/٧٢) ، (قبل) .

راسخ ، ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة . فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوحد بين أفرادها هو (الدم) ، أي النسب . والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية . والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي ، حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها . وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ ، وبها يستطيع ان يأخذ حقه من المعتدي عليه .

وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة ، هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على اطلاق لفظة (القبيلة) على الحضر أيضاً . مع انهم استقروا وأقاموا . فقريش عندهم قبيلة ، والأوس ، والخزرج قبيلة ، وثقيف قبيلة . ذلك لأن هؤلاء الناس وان تحضروا واستقروا وأقاموا ، وتركوا الحياة الأعرابية ، إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل الوبر ودينهم في التمسك بالانتساب الى جد أعلى والى أحياء وبطون . وفي اجابة النخوة والعصبية ، وما شابه ذلك من سجايا البداوة ، فعدّوا في القبائل ، وان صاروا حضراً وأهل قرار ، وقد طلقوا التنقل وانتجاع الكلأ .

وتشارك الشعوب السامية العرب في هذه النظرة . لأن نظامها الاجتماعي القديم هو كالنظام العربي قائم على القبيلة . والقبيلة عندها جماعة من بيوت ترى انها من أصل واحد ، وقد انحدرت كلها من صلب جدّ واحد . فهم جميعاً أبناء الجدّ الذي تتسمى به القبيلة . وهم مثل العرب في النداء وفي النسب . قد يذكرون الاسم فقط ، فيقولون مثلاً : أدوم ومؤاب واسرائيل ويهوذا ، أو أبناء اسرائيل وأبناء يهوذا ، وبنو اسرائيل وبنو يهوذا . وقد يقولون : بيت اسرائيل وبيت يوسف وبيت خمرى وبيت اديني ، بمعنى أبناء المذكورين . تماماً كما نقول : غسان ، وآل غسان ، وأبناء غسان وأولاد غسان ومن غسان ، وغساني ، وما شاكل ذلك ، ويريدون بها شيئاً واحداً ، هو النسب . أي الانتماء الى جد واحد به تسمى القبيلة واليه يرجع نسبها .

وهم يشعرون كالعرب ان أبناء القبيلة هم إخوة وهم من دم واحد ، ومن لحم ودم ذلك الجد . وهم يخاطبون بعضهم بعضاً بقولهم : (أنت من لحمي ودمي) . وفي التوراة أمثلة عديدة من هذا القبيل . فلما ذهب (ابو مالك بن

يربعل) الى عشيرة أمه خاطب أبناءها بقوله : (أيما خير لكم ! أن يتسلط عليكم سبعون رجلاً جميع بني يربعل ، أم ان يتسلط عليكم رجل واحد . واذكروا أني أنا عظمكم ولحمكم)[1] . وقد اعتبر (داوود) جميع أبناء عشيرته إخوة له [2] . وخاطب (شيوخ يهوذا) بقوله : (أنتم إخوتي ، أنتم عظمي ولحمي)[3] . فأبناء القبيلة هم إخوة من دم واحد . يسري في أجسامهم جميعاً ما دامت القبيلة حية باقية . ووحدة الدم هذه هي الرابط الذي يجمع شمل القبيلة . وهي صلة رحم ، وعصبية ، والحكومة الصحيحة التي يجب ان تطاع .

والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة إلا انها دولة القبيلة . وهي دولة صلة الرحم التي تربط الأسرة بالقبيلة . دولة العظم واللحم ، دولة اللحم والدم ، أي : دولة النسب . فالنسب هو الذي يربط بين أفراد الدولة ويجمع شملهم . وهو دين الدولة عندهم وقانونها المقرر المعترف به . وعلى هذا القانون يعامل الإنسان . وبالعرف القبلي تسير الأمور . فالحكام من القبيلة ، وأحكامهم احكام تنفذ في القبيلة ، واذا كانت ملائمة لعقلية القبيلة والبيئة ، وهذا هو ما يحدث في الغالب ، تصير سنة للقبيلة ، نستطيع تسميتها بـ (سنة الأولين) . ووطن القبيلة هو بالطبع مضارب القبيلة حيث تكون ، وحيث يصل نفوذها اليه ، فهو يتقلص ويتوسع بتقلص وبتوسع نفوذ القبيلة .

وقد واجه المسلمون في أيام الفتوح صعوبة كبيرة في فتوحهم بسبب العقلية القبلية وضيق أفقها ، وعدم تمكنها من التخلص من مثلها الجاهلية بسهولة . فقد كان على القائد ان يقاتل عدوّه بجيش يحارب على شكل كتل قبائل ، تتكون كل كتلة من مقاتلي قبيلة واحدة ، لا من جنود ينتمون الى أمة هي فوق الكتل والقبائل . وكان على رأس كل وحدة مقاتلة رؤساء من القبيلة التي ينتمي اليها الجنود. وقد واجه الإمام (عليّ) صعوبة حينما حارب في معركة الجمل وفي معركة صفين وغيرها ، إذ اشترطت عليه القبائل المحاربة ، ألا تحارب إلا رجال قبيلتها الذين يكونون ضده ، فالهمدانيون الذين معه يحاربون الهمدانيين الذين يحاربون مع خصمه . وهكذا فعلت بقية القبائل ، للعصبية القبلية ، لأنهم لم يكونوا يستطيعون رؤية قبيلة غريبة تفتك

---

١ سفر القضاة ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢ .
٢ صموئيل الأول ، الاصحاح ٢٠ ، الآية ٢٩ .
٣ صموئيل الثاني ، الاصحاح التاسع عشر ، الآية ١٣ .

بإخوانهم من قبيلتهم ، وهم ينادون بشعار العصبية ، شعار القبيلة . أما هم فإن قاتلوا إخوانهم من قبيلتهم ، فإن قتالهم هذا يختلف عن قتال الإخوة حين يقتتلون قتالاً قد يكون أشد ضراوة من قتال الغرباء ، لا يلتفت فيه الى وجود دم واحد بين المتقاتلين ، والى أنهم من بيت أب وأم ، يحتم عليهم التكتل والتعصب ، إذ لا غريب هنا أمامهم في هذا القتال .

ولست بحاجة وأنا في هذا المكان ، لتكرار قول سبق ان قلته في الجزء الأول من هذا الكتاب — من ان أسماء القبائل لا تعني بالضرورة انها أسماء أجداد حقيقيين عاشوا وماتوا . فبينها كما سبق ان قلت أسماء مواضع ، مثل غسان ، وبينها أسماء أصنام مثل (بنو سعد العشيرة) وبينها أسماء أحلاف مثل (تنوخ) وبينها نعوت وألقاب .. الى آخر ذلك من أسماء قبائل وصلت الى علم علماء الأنساب ، فأوجدوا لها معاني واعتبروها أسماء رجال حقيقيين تزوّجوا ونسلوا ومنهم من كان عاقراً فلم ينسل ، فذهب أثره ، ولم تبق له بقية[1] .

والمفهوم من لفظة (القبيلة) في العادة : القبائل التي تتألف من عمائر وما وراء العمائر من أقسام . فاذا ذكرت القبيلة انصرف الذهن الى آلاف من البيوت تجتمع تحت اسم تلك القبيلة . ولكن الناس يتجوزون في الكلام وفي الكتابة أحياناً فيطلقونها على عدد قليل من الناس قد يبلغ ثلاثة نفر أو أربعة مثل : (بنو عبد الله ابن أفصى بن جديلة) ، و (بنو جساس بن عمرو بن خوّية بن لوذان) ، من (بني فزارة) ، و (كليب بن عديّ بن جناب بن هبل) ، و (بنو شقرة) من تميم . وقد يطلقونها على أكثر من ذلك ، ولكن على عدد قليل من الناس أيضاً ، كأن يكون خمسين رجلاً أو ستين[2] . وهذا الاستعمال ، هو على سبيل التجوز لا الاصطلاح .

ويرى علماء العربية ان هناك تجمعات ، هي في نظرهم أكبر حجماً من القبيلة أطلقوا عليها (الشعوب) . فذكروا ان الشعوب فوق القبائل ، ومثاله : بنو قحطان ، وبنو عدنان ، فكل منهما شعب . وما دونهما قبائل . وذهب بعض منهم الى ان (الشعوب) للعجم ، فإن الشعوب بالنسبة لهم ، مثل القبائل

---

١ راجع الجزء الأول من كتابي (ص ٢٩٤ وما بعدها) .

٢ المحبر (ص ٢٥٦) ، (القبائل التي لا يزيد عددها) .

للعرب ، ومنه قيل للذي يتعصب للعجم (شعوبي) ، وقيل : بل هي للعرب وللعجم . والذي عليه أكثر علماء الأنساب ، ان الشعب أكبر من القبيلة ، وان الشعب أبو القبائل الذي ينتسبون اليه ، أي يجمعهم ويضمهم [1] .

ويظهر ان مردّ هذا الاختلاف هو ما ورد في القرآن الكريم من قوله : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) [2] . فقدم (الشعوب) على القبائل . فذهب أكثر المفسرين والعلماء الى ان هذا التقديم يعني ان الشعب أكبر من القبيلة ، وان الشعوب الجمّاع والقبائل البطون ، أو الشعوب الجمهور والقبائل الأفخاذ ، أو الشعوب : النسب البعيد ، والقبائل : دون ذلك ، كقولك فلان من بني فلان ، وفلان من بني فلان . وتأول بعض آخر هذا المعنى ، فذهبوا الى ان هذا التقديم أو التأخير ، لا علاقة له بالكبر ، أي بحجم الشعب أو القبيلة ، والآية لا تريد ذلك ، وانما تريد الأنساب ، وانها نزلت في بيان ان الإنسان لا بنسبه ، وانما بعمله . وعلى هذا ، فإن الشعب ، في نظرهم دون القبيلة في الترتيب . والشعب بعد القبيلة في الدرجة [3] .

وقد أخذ العلماء بالتأويل الأول للفظة (الشعب) ، حتى صار هذا المعنى هو المعنى المفهوم منها عند الناس في الإسلام . فهي انما تعني اليوم جنساً من أجناس البشر له خصائصه ومميزاته ، كالشعب العربي والشعب اليوناني والشعب التركي والشعب البريطاني والشعب الامريكي ، وهكذا . أو جزءاً كبيراً مستقلاً من أجزاء أمة واحدة ، كأن نقول : الشعب العراقي ، والشعب السوري ، والشعب السعودي ، والشعب المصري ، أي وحدة جغرافية سياسية ذات كيان .

ولفظة (الشعب) ، من الألفاظ الواردة في نصوص المسند . وهي فيها بمعنى قبيلة ، وتكتب (شعبن) ، بمعنى (الشعب) . وحرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في العربيات الجنوبية . فهي إذن مرادف (قبيلة) بالضبط . والجمع (اشعب) ، أي (شعوب) . ورد (سباواشعبهمو) ، أي (سبأ وشعوبهم) ،

١ تاج العروس (٣١٨/١) ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم (٧٤) .
٢ سورة الحجرات ، السورة رقم ٤٩ ، آية ١٣ ، تفسير الطبري (٨٨/٢٦) ، تفسير الألوسي (١٤٧/٢٦) .
٣ تفسير الطبري (٨٨/٢٦) .

أو (سبأ وقبائلهم) بتعبير أدق وأصح . وورد (شعبن معن) ، أي (قبيلة معين) ، و (شعبن همدان) ، أى (قبيلة همدان) . والظاهر ان أهل مكة ، وقفوا في الجاهلية على هذه اللفظة أيضاً فاستخدموها ، وان قبائل حجازية مجاورة لمكة ، كانت تستعمل لفظة (شعب) و (الشعب) ، بمعنى قبيلة ، ونظراً لورودهما معاً في القرآن الكريم ، فرّق العلماء بين اللفظتين ، باعتبار ان ذكرهما معاً ، يعني وجود بعض الاختلاف في المراد منهما . فوقع من ثمّ بين المسلمين هذا التمييز ، وصارت لفظة (الشعب) تدل على معنى يختلف عن معنى كلمة (قبيلة) و (القبيلة) .

ويلي الشعب في اصطلاح أهل النسب : القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعمارة مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم ، وبني أميّة ، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس [1] . وجعل (ابن الكلبي) مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة ، وهي رهط الرجل [2] .

وورد ان البطن دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة . وذكر بعضهم ان أول العشيرة : الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ [3] . وذلك على رأي من جعل العشيرة : العامة . مثل : بني تميم وبني عمرو بن تميم . أي الجماعة العظيمة [4] .

وزاد بعض العلماء الجذم قبل الشعب ، وبعد الفصيلة العشيرة ، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتبها آخرون على هذه الصورة ، جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ،

١ اللسان (٥٧/١٤) ، (١٩٩/١٦) . بلوغ الأرب (١٨٧/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٧٢/٨) ، السيرة الحلبية (٣٧/١) ، العمدة (١٩١/٢) ، (محمد محي الدين عبد الحميد) ، تاج العروس (١٤١/٩) ، (بطن) .

٢ العقد الفريد (٢٨٣/٣ فما بعدها) ، المقريزي ، النزاع والتخاصم (٦٥) ، نهاية الأرب للنويري (٢٦٢/٢ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (١٤١/٩ ، (بطن) .

٤ تاج العروس (٤٠٣/٣) ، (عشر) .

ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة هي : بيت ، وحيّ ، وجماع . [1] وذكر بعض علماء اللغة أن (الجذم) ، الأصل في كل شيء . فيقال : جذم القوم أهلهم وعشيرتهم . ومنه حديث حاطب ، لم يكن رجل من قريش الا له جذم بمكة . [2]

وذكر بعض العلماء ان العمارة الحيّ العظيم يقوم بنفسه . [3] وان الفرق بين الحيّ والقبيلة هو ان الحيّ لا يقال فيه بنو فلان نحو قريش وثقيف ومعدّ وجذام . والقبائل يقال فيها بنو فلان مثل بني نعيم وبني سلول [4] . وذكر ايضاً ان العمارة : الحيّ العظيم الذي يقوم بنفسه ، ينفرد بظعنها واقامتها ونجعتها . وقيل هو اصغر من القبيلة . وفي الحديث : انه كتب لعمائر كلب وأحلافها كتاباً . قال التغلبي :

لكل اناس من معدٍّ عمـــارة عروضٌ ، اليها يلجأون ، وجانب [5]

وقسم (النويري) النظام القبلي عند العرب الى عشر طبقات [6] . وابتـــدأ بـ (الجذم) وهو الاصل : وهو قحطان وعدنان ، والطبقة الاولى . ثم الجماهير ، وهي الطبقة الثانية ، ثم الطبقة الثالثة : الشعوب ، والطبقة الرابعة القبيلة ، وهي التي دون الشعب تجمع العمائر ، ثم الطبقـــة الخامسة : العمائر ، وهي التي دون القبائل ، وتجمع البطون ، ثم الطبقة السادسة : البطون ، وهي التي تجمع الأفخاذ ، والطبقة السابعة : الأفخاذ . وهي اصغر من البطن . والفخذ تجمع العشائر . والطبقة الثامنة : العشائر ، واحدها عشيرة ، وهم الذين يتعاقلون الى اربعة آباء . والطبقة التاسعة : الفصائل ، واحدها فصيلة ، وهم اهل بيت الرجل وخاصته ، والطبقة العاشرة : الرهط ، وهم الرجل واسرته . [7]

١ اللسان (١٨/٢٣٥) ، نهايـــة الأرب ، للنويري (٣/٢٦٢ فما بعدها) ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم (٧٤) .
٢ تاج العروس (٨/٢٢٢) .
٣ المفضليات (ص ٤١٤) ، القاموس (٢/٩٥) .
٤ الخوارزمي ، مفاتيح (ص ٧٤) .
٥ اللسان (٤/٦٠٦) ، (عمر) .
٦ نهاية الأرب (٢/٢٧٧) ، (الباب الرابع من القسم الاول من الفن الثاني في الإنساب) .
٧ نهاية الأرب (٢/٢٨٤ وما بعدها) .

ما ذكرته يمثـل مجمل آراء علماء النسب عند العرب في موضوع كيان القبيلة وفروعها التي تتفرع منها درجة درجة ، حتى تصل الى البيت ، الذي يتكون من الأب والأم وأولادهما . وقد رأينا انهم قد اختلفوا فيما بينهم وتباينوا في الترتيب وفي العدد . منهم من يقدم ، ومنهم من يؤخر ، ومنهم من يزيد ، ومنهم من ينقص . واختلافهم هذا فيما بينهم ، هو دليل يشعرنا ان التقسيم المذكور لم يكن تقسيماً ثابتاً عند كل القبائل وأنه لم يكن تقسيماً جاهلياً بل كان تقسيماً محلياً اختلف بين قبيلة وأخرى ، وأن اسماء اجزاء القبيلة ، لم تكن اسماء عامة متبعة عند الجميع ، أي اسمـاء مقررة عند كل قبيلة ، بل هي اسماء اخذها العلماء من هنا وهناك ، ولهذا وقع بينهم هذا الاختلاف ، ولو كان عند الجاهليين تقسيم واحد لاجزاء القبيلة فما كان من المعقول ان يقع علماء النسب واللغة فيما رأينا من تباين واختلاف ، ولوجب اتفاقهم في الترتيب وفي العدد . فالتقاسيم المذكورة اذن ، هي من وضع وترتيب وجمع علماء النسب واللغة في الاسلام .

وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي : الأسرة ، اي (البيت) . فهي نواة القبيلة وبذرتها وجرثومتها ، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة ـ التي يختلف حجمها وتختلف كثرة اغصانها وفروعها باختلاف منبت الشجرة والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها . من بذرة جيدة ومن تربة صالحة وماء كاف . والبيت هو نواة القبيلة عند العرب ، وهو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية . بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع انساني .

القحطانية والعدنانية :

تحدثت في الجزء الاول من هذا الكتاب عن القحطانية والعدنانية بما فيه الكفاية[1] ، وأعود هنا فأقول ان ما ذكرته عن اهل المدر وأهل الوبر ، اي عن الحضر والبدو او الاعراب وهم اهل البادية ، لا يعني ان الحضر هم القحطانيون ، وان الاعراب هم العدنانيون . كما ذهب الى ذلك بعض المستشرقين باعتبار ان غالبية من نسميهم القحطانيين هم حضر ، او اقرب من غيرهم الى الحضر ، وأن غالبية العدنانية

---

١ (١/٤٩٣ وما بعدها) .

اعرابية متبدية . والصواب عندي ان في القحطانيين عرباً واعرابا ، وفي العدنانيين حضراً وبادية ، وان غلبت البداوة على العدنانيين . لأن من وجد الماء الدائم تنخ عليه وتحضر ، قحطانياً كان النازل أم عدنانياً ، فالحضارة تنبت حيث يكون الماء ، والماء لا يعرف النسب والقبائل . من وجده وظفر به وأقام عليه تحضر واستقر ، فصار حضرياً .

ولهذا نجد في حضر جزيرة العرب اقواماً يحشرهم اهل الانساب في قحطان ، ونجد في حضرها اقواماً يرجعون نسبهم الى عدنان .

ونحن اذا ما رسمنا خارطة لكيفية توزع الحضر والاعراب ، أو لكيفية انتشار القبائل ، فاننا نجد ان منازل القبائل متداخلة مشتبكة . ليست بينهـا حدود ولا اسوار حاجزة تحجز القبائل القحطانية عن القبائل العدنانية . الا في العربية الجنوبية حيث يرجع النسابون نسب اكثر قبائلها الى أصل قحطاني . أما في الاماكن الاخرى ، فان القبائل القحطانية وكذلك القبائل العدنانية منتشرة ، انتشاراً لا يدل على وجود تكتل وتحزب . بل نجد القحطانية تجاور العدنانية وتخالطها ونجد القحطانية في جوار القحطانية ، والعدنانية في جوار العدنانية ، مما يدل على ان هذا التوزيع لم يقم ولم يستند على عنصرية وحزبية وعلى هجرات منتظمة ، وانما قام على حق القوة وتحكم القوي في الضعيف ، مهما كان عنصر القوي وأصله . وأن التكتل قد حدث بدوافع سياسية عسكرية لعبت دوراً خطيراً في تكون النسب .

وظاهرة اخرى نراها عند القبائل ، تتجلى في ان القبائل وان تنقلت وارتحلت من مكان الى مكان ، سعياً وراء الماء والكلأ ، كما يذكر اهل الاخبار ، الا ان ذلك لا يعني ان هذه الحركة هي حركة دائمية مستمرة ، وان القبـائل كانت تتنقل دوماً من مكان الى مكان . بحيث صار الترحل لها سنة دائمة لازمة . فلو ثبتنا منازل القبائل على (خريطة) صورة جزيرة العرب ، استناداً الى روايات اهل الاخبار عنها ، وجدنا ، ان منازل القبائل لم تتبدل الا للضرورات ولأسباب قاهرة تكره القبيلة على ترك ديارهـا والارتحال عنها الى منازل جديدة . كأن تغزوها قبائل كثيرة العدد أقوى منها او ينحبس عنها المطر سنين ، تهلك الضرع ، او تحاربها قوة نظامية اقوى منها ، كالذي وقع لـ (إياد) ، حيث ازاحهـا (بنو عبد القيس) عن مواطنها في البحرين ، ثم شتتت الفرس شملها في العراق فعندئذ تضطر القبيلة وهي مكرهة مجبورة على ترك ديارها للبحث عن ديار اخرى

جديدة . وتكاد تكون اكثر اسباب هجرات القبائل وارتحالها من اماكنها الى اماكن اخرى هي الأسباب المذكورة .

وطراز حياة القبائل في جزيرة العرب باستثناء العربية الجنوبية ، متشابه ، بحيث يصعب ان نجد فروقاً واضحة ظاهرة بين القبائل التي ينسبها النسابون المسلمون الى قحطان او الى عدنان ، فهي متشابهة وعلى وتيرة واحدة . وأما اللغة ، فاننا لا نجد فيما بين القبائل العدنانية والقحطانية اي خلاف يذكر على ما يظهر من روايات علماء اللغة . بل نجد ان لهجات القبائل القحطانية الشمالية هي لهجات عدنانية ، مخالفة للهجات اهل اليمن المعروفة التي كانت سائدة في اليمن الى ظهور الاسلام . فلهجات اهل اليمن من الحميرية وغيرها ، بعيدة عن لهجات القبائل القحطانية والعدنانية بعداً متساوياً ، حتى بالنسبة الى القبائل اليمانية التي غادرت اليمن في عهد متأخر ، كما سأبحث عن ذلك فيما بعد ، وفي القسم الخاص بلغات اهل الجاهلية . ولهذه الظاهرة اهمية كبيرة بالنسبة الى دراسة اللغة والنسب عند العرب الجاهليين .

وعندي أن ما يذهب اليه المستشرقون من تقسيم العرب الى عرب جنوبيين وعرب شماليين ، هو تقسيم لا يمكن اعتباره تقسيماً علمياً . فان ما نشاهده من فروق في الملامح والمظاهر بين اهل العربية الجنوبية من اهل اليمن وحضرموت ومسقط وعمان وبين اهل الحجاز ونجد ، والعرب الشماليين الآخرين ، وان كان واضحاً ظاهراً ولا مجال الى نكرانه ، الا ان هذه الفروق لا يمكن اعتبارها مع ذلك حداً فاصلاً يقسم العرب الى مجموعتين : مجموعة شمالية ومجموعة جنوبية ، لسبب بسيط جداً سبق ان بينته في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وتحدثت عنه في مواضع اخرى منه . وهو ان كل مجموعة من المجموعتين لا تكون في نفسها وحدة متناسقة متجانسة ، بل تتألف من مجموعات يختلف بعضها عن بعض في السحن وفي الملامح ، بسبب عوامل الاتصال بالعالم الخارجي ، وبسبب اختلاف الظروف الطبيعية التي يعيش بها افراد كل مجموعة . فأهل جبال اليمن والجبال المتصلة بها الممتدة الى عمان ، يختلفون اختلافاً بيناً عن اهل السواحل والارضين المنخفضة ، ليس في الملامح والسحن فحسب ، بل وفي العمل وفي النشاط وفي المدارك ايضاً . وأهل السراة في العربية الغربية يختلفون عن اهل تهامة وبقية ساحل البحر الأحمر ، وأهل نجد يختلفون عن اهل ساحل الخليج . يختلفون عنهم في السحن والملامح كما

يختلفون عنهم في المدارك وفي حدة الذهن . وهذا الاختلاف هو شيء واقعي بين للعيون ، يراه كل انسان حين يزور بلاد العرب . وهو في حدّ ذاته شاهد على فساد نظرية المستشرقين في تقسيم العرب الى مجموعتين .

وبعد ، فهذه الطبيعة طبيعة جزيرة العرب — من جوّ وأرض ، من انحباس مطر ومن ارتفاع في درجات الحرارة . ومن يبوسة في الهواء ، وقلة في الرطوبة ؛ ومن اختلاف في ضغط الجوّ اختلافاً يخل بتوازنه فيثير فيه اعاصير وعواصف ، تعتدي على حرمة التربة الهادئة الراقدة ، فترفع رمالها الى ارتفاعات متباينة ، وتلفح الأوجه والأجسام بـ (سموم) وبما شاكله من اهوية مزعجة ، تثير الغضب وتلهب العصب ، وتجعل الجوّ داكناً اظلم مغبراً ، اضف الى ذلك ما تراه من نور ساطع وأشعة لامعة تحمل أمواجاً غير مرئية تؤثر في خلايا البشرة وفي النفس ، ثم هذه الرطوبة المفرطة المتحكمة في التهائم ، وهذه الندرة في الانهار ، والاسراف في ظهور البوادي والصحارى ، وتحكم الطبيعة تحكماً جائراً في توزيع النبات والحيوان على اهـــل جزيرة العرب : كل هذه الامور وامثالها أثرت اثراً كبيراً في نفس اهل جزيرة العرب ، وفي شكل اجسامهم ، وفي حالة معيشتهم ، فجعلتهم يختلفون عن غيرهم بأمور ، ويتبـــاينون فيما بينهم بأمور ، وذلك لاختلاف طبيعة اجزاء الجزيرة نفسها . ونحن لن نستطيع فهم العرب فهماً صحيحاً دقيقاً ، الا اذا درسنا هذه الامور المذكورة وأمثالها دراسة علمية دقيقة . وعندئذ فقط نستطيع فهم سبب تفشي البداوة بين العرب ، وسبب تطبع العرب بطباع خاصة ، واتسامهم بسمات وعلامات خاصة وبملامح ومظاهر جسمية متباينة ، وأمثال ذلك مما تعرضت له في بحث الجنس والسامية وفي بحث طبيعة العقلية العربية وما قيل في حقها من اقوال ، وما ورد في العرب من مدح او ذم ومن وصف صادق او كاذب .

اركان القبائل :

يرجع كل العرب من حيث النسب الى ركن من (اركان القبائل) . فقد اصطلح علماء النسب على ان للنسب عند العرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان :

ربيعة ومضر ويمن وقضاعة .[1] وذلك على رأي من جعل قضاعة ركناً قائماً بذاته . ولا يمكن ان يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول .

وورد ان العرب في النسب على أربع طبقات : خندفي وقيسي ، ونزاري ، ويمني [2] . ويمن هي قحطان . وكان العرب يتعززون بانتسابهم الى اليمن ، فكان من ينقلب على نسبه يتخذ لنفسه نسباً يمانياً . (وأكثر العزوة لمن ينقلب عن نفسه الى اليمن ، لأجل أن الملوك كانت في اليمن : مثل آل النعمان بن المنذر من لخم ، وآل سليح من قضاعة ، وآل محرق ، وآل العرنج ، وهو حِمْيَر الاكبر ابن سبأ كالتبابعة والأذواء وغيرهم . والعرب يطلبون العز ولو كان في شاخات الشواهق ، وبطون الامالق البوائق ، فينتسبون الى الأعز لحماية الحمّية واباءة الدنية ..) [3]

ورجع بعض النسابين المعروفين نسب العرب الى ثلاث جراثيم : نزار ، واليمن وقضاعة [4] . ويمثل رأيهم هذا رأي القائلين بالأركان الاربعة للقبائل بالضبط ، لأن نزاراً هو في عرفهم والد ربيعة ومضر ، وكل ما فعلوه هنا ، هو انهم حذفوا اسمي الولدين وأحلوا اسم والدهما في محلهما .

ورجع (المأمون) الخليفة العباسي ، اصول العرب الى قيس ويمن وربيعة ومضر . فلما تعرض عربيّ بالمأمون وهو في زيارته لبلاد الشام ، ولامه في تقديم أهل خراسان على العرب ، بقوله : (يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان) ، أجابه الخليفة : (أكثرت عليّ يا أخا اهل الشام ، واللهِ ما انزلت قيساً عن ظهور الخيل الا وأنا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن فواللهِ ما احببتها ولا أحبتني قط . وأما ربيعة فساخطة على ربّها منذ بعث اللهُ نبيّه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شارياً ، اعزب عني فعل الله بك ...) [5]

فأركان العرب في رأي المأمون اربعة : قيس ويمن وربيعة ومضر . وهي كتل

---

١ بلوغ الأرب (٣/٢٠٣) .
٢ نهاية الأرب (٣/٢٧٨) .
٣ نهاية الأرب (٢/٢٨٣) .
٤ الانباه (٦٣) .
٥ الاسلام والمشكلة العنصرية ، لعبد الحميد العبادى (ص ٩٠ بعدها) .

كانت على عادة العرب متنافسة متحاسدة متباغضة ، ترى كل واحدة منها نفسها وكأنها أمة دون سائر الأمم ، و (يمن) كناية عن العرب الجنوبيين من همدان وحمير وكندة وأمثالها ، وأما قيس وربيعة ومضر ، فكناية عن تكتلات وتجمعات العرب من غير اليمن .

وذهب (ابن حزم) الى ان جميع العرب من أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعُتق ، وغسان ، فان كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وذلك ان تنوخاً اسم لعشر قبائل اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسُمّوا تنوخاً ، والعتق جمعٌ اجتمعوا على النبي ، فظهر بهم فأعتقهم فسُمّوا بذلك ، وغسان عدة بطون نزلوا على ماء يسمى غسان فسمّوا به . [1]

ولما جاء (خالد بن الوليد) الى العراق كان جيشه من (ربيعة) و (مضر) [2] ومن قبائل يمانية . ومعنى هذا وجود ثلاثة اركان قبائل محاربة . ولما قال (خالد ابن الوليد) لـ (عديّ بن عديّ بن زيد العباديّ) : (ويحكم ! ما انتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ! فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال عديّ : بل عرب عاربة واخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا امرنا ؟ فقال له عديّ : ليدلك على ما نقوله انه ليس لنا لسان الا بالعربية ، فقال : صدقت) [3] ولا تعني جملة (بل عرب عاربة واخرى متعربة) معنى : ان العرب عربان،عرب عاربة وعرب متعربة ، على النحو المفهوم منها عند اهل الاخبار . بل هي تعبر عن واقع اصل اهل الحيرة . فقد كان اهلها بين عرب صرحاء وبين عرب متعربة اي جماعة لم تكن عربية في الأصل وانما كانت من اصل عراقيّ وفارسيّ اقامت في الحيرة ، وتأثرت بأهلها العرب فتكلمت العربية حتى صارت العربية لسانها ، فهي من العرب المتعربة . وقد كان كل عرب العراق على هذا النحو في ذلك الوقت . فهم بين عرب خلّص وبين عرب متعربة ، لم تكن اصولها من منبت عربيّ ، وانما دخلت في العرب فتطبعت بطباعهم وأخذت لسانهم حتى نسيت ألسنتها القديمة ، وصارت من العرب .

---

١ بلوغ الأرب (٣/١٩١) .
٢ الطبري (٣/٢٤٧) ، (مسير خالد الى العراق وصلح الحيرة) .
٣ الطبري (٣/٣٦١) .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان العرب من (نزار) ملكتهم الفرس . وأن العرب من غسان ملكتهم الروم [1] . فجعل (نزاراً) في مقابل غسان . ولم يكن كل عرب العراق من (نزار) . يدلك على ذلك ان ملوك الحيرة على رأي اهل الاخبار من قحطان . والذي يلاحَظ من كيفية توزيع القبائل على حسب رواية اهل الاخبار أن معظم قبائل العراق ، هي من قبائل (نزار) او من (ربيعة) و (مضر) بتعبير آخر . اما معظم قبـائل بلاد الشام فهي من (يمن) . اي على عكس الحال في العراق . فهل يمثل هذا التقسيم توزيعاً تأريخياً صحيحاً ؟ بمعنى ان اكثر قبائل العراق ، قد وردت العراق من العربية الشرقية والعربية الوسطى ، اي من سواحل الخليج ونجد ، وان عرب بلاد الشام انما جاؤوا الى هناك من اليمن ، عن طريق الحجاز ونجد . او انه تقسيم سياسي اصطلاحي ، نشأ قبل الاسلام بعهد طويل من المنافسة التي كانت بين العراق وبلاد الشام ، المنافسة التي ظلت باقية في الاسلام . فقد كان بين العراق وبين بلاد الشام عداء وتباغض ، لعوامل لا مجال للبحث فيها في هذا المكان . وقد استولت حكومات العراق من حكومات وطنية وأجنبية على بلاد الشام مراراً ، مما ولد مرارة وأوجد حقداً بين اهل العراق وأهل الشام ، فانتقل ذلك الى عرب القطرين ايضاً . فحارب عرب العراق عرب بلاد الشام ، حتى وصل هـذا العداء الى دعوى وجود فرق بين اصل عرب العراق وأصل عرب بلاد الشام . فصارت اكثر قبائل العراق في عرف اهل الانساب من ربيعة ومضر ونزار ، وصار معظم بلاد الشام في عرفهم من اليمن . قياساً على ما كان عليه العرب عند ظهور الاسلام من انصار ومهاجرين ، او من يمن وعدنان ، او قحطان وعدنان وما شابه ذلك من اسماء . اما رأيي ، فان لأهل الاخبار يداً طولى في هذا التقسيم الذي ظهر واينع في الاسلام . وان الجاهلية لم تكن تخلو من تجمعات وتكتـلات قبلية ، لكنها كانت تختلف عن التجمعات التي اثارتها النعرة القبلية الجديدة التي برزت في الاسلام ، والتي اثرت على ظهورها عوامل عديدة الى ان ثبتت ودُوّنت في كتب اهل الانساب والاخبار .

وجعل بعض اهل الاخبار العرب يمناً ونزاراً . وذكر ان اليمن اصحاب بحر وبني نزار اصحاب بر [2]. وقصدوا باليمن اصحاب الساحل ، الذين عركوا البحر

---

١ المعاني الكبير (٢/٩٤١ وما بعدها) .
٢ المعاني الكبير (٢/٦٤٠) .

وخبروه . عكس (نزار) ، عرب البر ، وهم قوم لا علم لهم بالبحر ، انهم لم يتعودوا على ركوبه . اذ سكنوا البرّ ولم يعركوا البحر ، فخافوا منه وتجنبوه .

والآراء المتقدمة في تقسيم العرب الى اركان وكتـــل ، هي آراء عربية محضة أخذت من واقع الحال ، ولم تستمد من التقسيم المألوف للعرب الى قحطانيين وعدنانيين ، التقسيم المأخوذ من التوراة على نحو ما شرحت ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب . ذلك لأن الحياة في بلاد العرب هي حياة تكتل وتحزب ، فكان لا بد للقبائل من عقد احلاف فيما بينها للمحافظة على نفسها من افتراس القبـــائل الكبيرة لها ، ومن استذلالها وأخذ ما تملكه . وبهذه الاحلاف حافظت القبائل الضعيفة على حياتها ، وحدّت من طمع القبائل الضخمة في القبائل الهزيلة ، وصار في الامكان السيطرة على الأمن والتقليل من حمى غزو القبائل بعضها بعضاً .

وحاجة الاعراب الى الاحلاف اكثر وأشد من حاجة الحضر اليهـــا ، وذلك بسبب ان الغزو في البادية ضرورة من ضرورات الحياة لفقر البادية وشحها ، لانبساط ارضها وعـــدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزو منه . فاضطرت القبائل على خلق حماية طبيعية لها هي الاحلاف . والاحلاف هي لغاية حماية المال والنفس في الغالب ، ولكبح جماح المعتدين اذن . اما الاحلاف الهجومية التي تعقد لتحقيق اغراض هجومية مثل غزو حلف حلفاً آخر او قبيلة ضخمة قبيلةً ضخمة اخرى ، فانها لا تعمر طويلاً كما تعمّر الاحلاف الدفاعية ، لأن اسباب انعقادها تزول بتنفيذ ما اتفق عليه ، وقد يتحطم الحلف بسبب ظهور اختلافات مصالح لم تكن في حسبان المتحالفين يوم عقدوا حلفهم ، فيتصدع بنيان الحلف ويتهدم ويزول الحلف ليظهر محله حلف آخر جديد .

اما الحضر ، فان لهم من حماية ارضهم لهم ، ومن طبيعة الحياة التي يحيونها ما يخفف من حاجتهم الى الحلف القبلي ، ويجعل احلافهم احلافاً من طراز آخر . فقد منحت الطبيعة الحضر حجراً صلداً بنوا به ابراجاً وحصوناً ومعاقل حموا بها مستوطناتهم ، من طمع الطامعين فيهم ، ولا سيما من الاعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديمها لعدم وجود اسلحة تؤثر فيها ؛ ومنحتهم تربة صار من الممكن عمل الاجر او اللبن منها لبناء المحافد والآطام وما شاكل ذلك من وسائل الدفاع ، كما امدتهم بمواد بناء مكنتهم من انشاء الحيطان والأسوار حولها ،

وهي مانع يصد الأعراب عن الحضر . وهم بالاضافة الى ذلك أقدر على الدفاع عن أنفسهم وعلى اللجوء الى الحيل للتخلص من الأعراب بسبب تحضرهم وتقدمهم في التفكير على عقلية الفطرة التي جبل البدو عليها . وغاية مـــا فعله الحضر من الأحلاف ، هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من التحرش بهم . وعقد حبال مع القبائل لمرور تجارهم من أرضها بأمن وسلام مقابل هدايا أو أرباح أو أموال تعين ، تدفع الى ساداتها تأليفاً لقلوبهم وضماناً منهم لهم بعدم تحرش أحد بهم .

ولما تقدم انحصرت الأحلاف الكبرى أو التكتلات القبلية الضخمة بالأرضـــين المكشوفة التي غلب عليها الطابـــع الصحراوي . وبين القبائل التي غلبت البداوة عليها . والأحلاف الكبرى ، هي في نظري كناية عن النسب الاكبر عند العرب. فربيعة ومضر وإياد وأنمار وقضاعة ، هي في الواقـــع تكتلات قبيلة تكونت من قبائل غلبت البداوة على طبعها ، وقد ظهرت خارج العربية الجنوبية ، أي خارج الأرضين التي غلب على سكانها طابـــع الارتباط بالارض والقرار . اما القبائـــل القحطانية ، التي هي في التوراة كناية عن قبائل عربية جنوبية مستقرة ، فكتل أخذت أسماءها من الأرضين التي كانت تحكمهـــا أو من اسم القبيلة التي سميت باسمها . وبين أسماء القبائل وأسماء الأرضين صلة متينة ، بحيث يصعب الحكم فيما اذا كانت الارض قد أخذت اسمها من اسم القبيلة ، أو ان القبيلة أخذت اسمها من اسم الأرض .

وقد لعبت فكرة (قحطان) و (عدنان) دوراً مهمـــاً في حصر الأنساب عند العرب في الإسلام . يذكر الجاحظ ان رجلاً اسمه (شويس الساسي التميمي العدوي) ، المعروف بـ (أبي فرعون) ، كان قد قدم البصرة ، فذهب الى رجل منها اسمه (كهمس) يلتمس العون منه ، فأعطاه رغيفاً من الخبز الحواري ، ثم ذهب الى رجل آخر اسمه (عمر بن مهران) ، فلم يعطه مـــا كان يريد ، فضاق ذرعاً من هذا الرغيف ، وذهب الى حلقة (بني عدي) فوقف عليهم وهم مجتمعون ، وأخرج الرغيف من جرابه وألقاه في وسط المجلس ، وقال : يا بني عدي ، استفحلوا هذا الرغيف ، فإنه أنبل نتاج على وجه الأرض ! ثم قال شعراً سخر فيـــه من أهل البصرة ومن تشدقهـــم في الانتساب الى قحطان

أو عدنان ، وفحش بهما ومن انتساب الناس اليهما ، بينما الناس هنالك ما بين نبط أو خوزان [1] .

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام ، وفي الإسلام . حمير وكهلان . ومن مجموعة حمير قضاعة ، في رأي من جعل قضاعة من اليمن . ومن قضاعة كلب وأسد ومن أسد تنوخ . واما مجموعة كهلان ، فتتألف من الأزد وهمدان ومذحج وطيء، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج.

وربيعة من القبائل العربية الكبيرة العدد ، وقد سبق ان تحدثت عنها في مواضع من الأجزاء السابقة من هذا الكتاب . وقد عرفت (ربيعة) بـ (ربيعة الفرس) . ويعلل أهل الأخبار اشتهارها بذلك بقولهم : (وربيعة الفرس . هو ابن نزار بن معدّ بن عدنان ، أبو قبيلة . وإنما قيل له ربيعة الفرس لأنه أعطي من ميراث أبيه الخيل ، وأعطي أخوه مضر الذهب . فسمّي مضر الحمراء . وأعطي أنمار أخوهما : الغنم ، فسمي أنمار الشاة [2] . وذكروا أيضاً : ان نزاراً لما حضرته الوفاة ، آثر إياداً بولاية الكعبة ، وأعطى مضر ناقة حمراء ، فسمّي مضر الحمراء ، وأعطى ربيعة فرسه ، فسمّوا ربيعة الفرس ، وأعطى أنمار جارية له تسمى : بجيلة فحضنت بنيه ، فسمّي بجيلة أنمار) [3] . وذكر أيضاً ان نزاراً لما حضرته الوفاة قسم ماله بين بنيه ، (وهم أربعة : مضر وربيعة وإياد وأنمار . وقال : يا بني ، هذه القبة وهي من أدم حمراء وما أشبهها من المال لمضر، وهذا الخباء الأسود وما شبهه من المال لربيعة ، وهذه الخادم وما أشبهها من المال لإياد ، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه) . ولما مات توجهوا الى (الأفعى بن الأفعى الجرهمي) وكان ملك نجران ، وصادفوا في طريقهم أعرابياً ضل بعيره ، فوصفوه له ، فقال لهم دلّوني عليه ، ولما حلفوا له أنهم لم يروه وإنما وصفوه من أثره ، لم يصدقهم بل أخذهم الى (الأفعى) ليحلفوا أمامه انهم لم يروه ، فلما بلغوه قصّوا قصتهم مع الأعرابي ، وذكروا انهم إنما وصفوه من أثره على الارض . فحكم لهم (الأفعى) بأنهم صادقون ، وانهم لم يشاهدوه ، ثم احتفل بهم بعد ان عرفهم وجرب ذكاءهم ، وحكم بأن لمضر القبة الحمراء والدنانير

---

١ كتاب البغال ، من رسائل الجاحظ (٢/٣١٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٣٤٣) ، (ربع) .
٣ نهاية الأرب (١٦/١٠) .

والإبل ، وهي حمر فسميت : مضر الحمراء ، وان لربيعة الخباء الأسود من دابة ومال ، فصارت له الخيل ، وهي دهم ، فسميت ربيعة الفرس . ثم قال : وما اشبه الخادم ، وكانت شمطاء ، فهو لإياد ، فصارت له الماشية البلق من الخيل وغيرها ، وقضى لأنمار بالدراهم والارض[1] .

و (مضر) من القبائل الكبيرة . وقد عرفت بـ (مضر الحمراء) كما ذكرت . وفسر علماء اللغة والنسب اشتهار (مضر) على نحو ما ذكرت قبل قليل ، وفسره بعضهم بقوله ومضر الحمراء ، لأنه أعطي الذهب من ميراث أبيه . وأخوه ربيعة أعطى الخيل . فلقب بالفرس . أو لأن شعارهم في الحرب الرايات الحمر[2] . وقال بعض علماء اللغة ، وإنما سُمّي مضر بمضر : (لولعه بشرب اللبن الماضر أو لبياض لونه) ، (والعرب تسمي الأبيض أحمر ، فلذلك قيل مضر الحمراء)[3] . وذكر بعض أهل الاخبار ان مضر مضران : مضر الحمراء لسكناها قباب الأدم ، ومضر السوداء لسكناها المظال[4] .

ويظهر من هذه التفسيرات ، ان (مضر) كانت قد نعتت بـ (الحمراء) قبل ظهور الاسلام . وان (ربيعة) كانت قد عرفت بـ (ربيعة الفرس) ، ولعل هذا بسبب ، ان (مضر) كانت إذ ذاك قبائل ذات إبل وتجارة ومال ، ومنها (قريش) التي عرفت بتجارتها وبما جمعته من مال ، فقالوا (مضر الحمراء) . واما (ربيعة) ، فكانت قبائل متبدية غازية محاربة ، لها خيل وفرسان لهذا عرفت بـ (ربيعة الفرس) .

وقد أشار الشاعر (لبيد) الى ربيعة ومضر في شعره حين تعرض لذكر الموت ، فقال :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر[5]

١ الدميري ، حياة الحيوان (١/٣١) (الافعى) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٨) ، (حمر) .
٣ تاج العروس (٣/٥٤٤) ، (مضر) .
٤ نهاية الأرب (٩١٦) .
٥ ديوان لبيد (١/٢٨) ، (٢/١) .

أراد : هل أنا إلا من أحد هـذين الجنسين ، فسبيلي ان أفنى كما فنيا [1] .
ونسب اليه قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون معدّ فلتزعك العواذل [2]

فأشار بذلك الى (عدنان) و (معد) .

ومن أشهر قبائل مضر (قريش) ، حتى ان الناس كانوا إذا قالوا : مضري انصرف ذهنهم الى قرشي . على سبيل الشهرة ، لاشتهار قريش بالمضرية . فلما رأى رجل (أبا سفيان) واقفاً بباب (عثمان بن عفان) ينتظر الإذن بالدخول عليه . قال له : (يا أبا سفيان ، ما كنت أرى ، ان تقف بباب مضري ، فيحجبك ! فقال أبو سفيان : لاعدمت من قومي من أقف ببابه فيحجبني) [3].

القبائل القوية :

والقبائل مثل الدول ، أنماط ودرجات . منها قبائل قويـة نشطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيانها ، ومنها قبائل أقل من هذه القبائل شأناً وقوة تتحالف مع غيرها في الدفاع عن نفسها ، لتكون من الحلف كتلة قبلية مهابة . وقبائـل صغيرة ليست لها قدرة على الدفاع عن حياضها لوحدها ، لذلك تركن الى التحالف مع قبائل أخرى أقوى منها لتحافظ بذلك على وجودها .

والقبائل القوية هي القبائل الكثيرة العدد والموارد . واذا ترأسها سادات ذوو كفاءة وقدرة ، هابتها القبائل الأخرى ، وسادت على غيرها ، وكونت منهـا ومن القبائل التي تستولي عليها مملكة ، كالذي فعلتـه كندة . ولم يورد العلماء شروطاً في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة . وذلك من ناحية عـدد العشائر والبطون والأفخاذ ، فلم نعثر على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس وجب اطلاق لفظة (قبيلة) عليها . بل نجد علماء النسب يطلقونها أحياناً على بطون وأفخاذ ،

---

١ أمالي المرتضى (١/١٧١) ، (٢/٥٥) ، (تود ابنتاي) .
٢ أمالي المرتضى (١/١٧١) .
٣ نهاية الأرب (٦/٨٨) .

فيقولون : قبائـل قريش ، ويذكرون أسماءهـا ، بينما هي في الواقع (آل) أو أرهاط وبطون .

ويقال للقبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها (الأرحى)[1] . وعرفت القبيلة التي لا تنضم الى أحد بـ (الجمرة) . ذكر انها القبيلة تقاتل جماعة قبائل . وكل قبيل انضموا فصاروا يداً واحدةً ولم يحالفوا غيرهم ، فهم جمرة . وقيل : الجمرة : كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحداً ولا ينضمون الى أحد . تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صبرت عبس لقبائـل قيس . ولما سأل (عمر) الحطيئة) عن عبس ومقاومتها قبائل قيس . قال : (يا أمير المؤمنين كنا ألف فارس كأننا ذهبـة حمراء ، لا نستجمر ولا نحالف ، أي لا نسأل غيرنا ان يجتمعوا الينا لاستغنائهم عنهم) . والجمرة اجـتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل[2] .

وذكر ان (الجمرة) ألف فارس ، أي القبيلة التي يكون فيها ذلك العـدد من الفرسان ؛ وقيل ثلثمائة فارس أو نحوها . والذي يستنتج من آراء علماء اللغة والنسب في تعريف (الجمرة) ، انها القبائل المقاتلة القوية التي تعتمد على نفسها في القتال ، ولا تركن الى غيرها ، ولا تحالف غيرها لتستفيد من هـذا الحلف في قراع القبائل[3] .

ومن مفاخر هذه القبائل كثرة ما عندها من فرسان ، والفرسان في ذلك اليوم هم عماد حركة الجيوش ، ومن أسباب القوة والانتصار . وقد عدّوا القبيلة التي يكون فيها ثلاثمائة فارس أو نحوها جمرة ، وقيل الجمرة : ألف فارس[4] .

ومن جمرات العرب : ضبّة بن اد ، وعبس بن بغيض ، والحـارث بن كعب ، ويربوع بن حنظلة[5] . وذكر بعض العلماء ان جمرات العرب ثـلاث

١ اللسان (١٤/٣١٤) ، (صادر) ، (رحا) ، تاج العروس (١٠/١٤٦) ، (رحا) .
٢ اللسان (٤/١٤٥) ، (صادر) ، (جمر) ، الحصري ، زهر الآداب (١/٢٥) .
٣ تاج العروس (٣/١٠٧) ، (جمر) .
٤ اللسان (٤/١٤٥) ، (صادر) ، (جمر) .
٥ المحبر (ص ٢٣٤) .

جمرات : بنو ضبّة بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو نمير بن عامر . فطفئت منهم جمرتان . طفئت ضبّة ، لأنها حالفت الرباب وطفئت بنو الحارث ، لأنها حالفت مذحج . وبقيت (نمير) لم تطفأ ، لانها لم تحالف . وورد ان الجمرات : عبس بن ذبيان بن بغيض ، والحارث بن كعب ، وضبّة بن اد ، وهم إخوة لأم . لأن أمهم امرأة من اليمن . تزوجها (كعب بن عبد المدّان يزيد بن قطن ، فولدت له : الحارث بن كعب ، وهم أشراف اليمن . ثم تزوجها (بغيض بن ريث بن غطفان) ، فولدت له عبساً وهم فرسان العرب ، ثم تزوّجها (اد) فولدت له ضبّة . فجمرتان في مضر ، وهما عبس وضبّة وجمرة في اليمن ، وهم بنو الحارث بن كعب . وذكر بعض آخر ان الحارث ، هم بنو كعب بن علة بن جلد . ومنهم من عدّ تميماً من الجمرات[1] .

(قال الخليل : الجمرة كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم ، لا يحالفون أحداً ، ولا ينضمون الى أحد ، تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لمقارعة القبائل كما صبرت عبس لقيس كلها)[2] .

واذا تأملت كلام العلماء في جمرات العرب ، تجده يصادم بعضه بعضاً حتى ان الواحد منهم يذكر عدداً ، ثم يذكر عدداً غيره في موضع آخر من كتابه . وقد اعتذر عن ذلك بعض العلماء إذْ قال : (قلت فاذا تأملت كلامهم تجده مصادماً بعضه مع بعض) ، ثم ذكر أمثلة من أمثلة هذا التصادم ، ثم خلص الى هذه النتيجة ، واعتذر عنهم بقوله : (واذا تأملت كلامهم علمت انه لا مخالفة ولا منافاة ، إلا ان البعض فصل والبعض أجمل)[3] .

وعندي ان للعواطف القبلية دخل في هذا الاضطراب ، فمن النسّابين من تعصب لقبيلة ، فجعلها من الجمرات ، بسبب صلته بها ، ومنهم من تعصب لغيرها ، ومنهم من تعصب على هذه القبيلة أو تلك ، فأخرجها من الجمرات ، فمن هنا وقع هذا الارتباك عند العلماء حين سألوا نسابي القبائل ورواة الأخبار عن أيام

١ تاج العروس (٣/١٠٧) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٦٠) .
٣ تاج العروس (٣/١٠٧) .

الجاهلية ، وعن الأنساب والقبائل ، وهي من أهم الامور حساسية عند العرب ، فظهرت العصبية في مؤلفات أهل النسب والاخبار حين شرعوا بالتدوين .

وعرفت القبائل القوية الكبيرة التي تفرعت منها جملة قبائل بـ (أم القبائل) . ومن هذه القبائل (بكر بن وائل) [1] . وسبب ذلك ان القبيلة القوية تكبر بسبب انضمام القبائل الصغيرة ، فاذا توسعت وتضخم عددها صار من الصعب عليها البقاء في منازلها ، فتضطر عندئذ على التوسع والانتشار في أرضين جديدة . وقد تغادر أحياء منها منازلها لتجد لها منزلاً طيباً جديداً ، فتبتعد بذلك عن القبيلة الكبيرة التي جمعت تلك الأحياء . فتكون بمثابة الأم للقبائل النازحة . تربطها بها رابطة ذكرى الأمومة ، التي تتحول الى نسب تحفظه ذاكرة حفاظ الأنساب .

وعرفت أربع قبائل بشدتها وبأسها ، فقيل لها : (رضفات العرب) . وهي : (شيبان وتغلب وبهراء وإياد) [2] .

وقيل لـ (كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان) من قضاعة ، و (طيء ابن ادد) ، و (حنظلة بن مالك بن زيد مناة) من (تميم) ، و (عامر بن صعصعة بن معاوية) من (هوازن) ، (جماجم العرب) [3] . وذكر ان (الجماجم) السادات والرؤساء ، وان القبائل المذكورة ، كانت من جماجم القبائل ، أي من رؤسائها ، وقد دعيت بـ (جماجم) ، لأنها بمنزلة جمجمة الرأس بالنسبة للإنسان [4] . أي ان هذه القبائل من القبائل الرئيسة عند الجاهليين .

وبين القبائل ، قبائل دعاها (ابن حبيب) (أثافي العرب) . وهي (سليم) و (هوازن) من (قيس عيلان) ، و (غطفان) ، و (أعصر) و (محارب ابن خصفة) [5] . و (الإثفية) العدد الكثير والجماعة من الناس [6] . والظاهر انها إنما عرفت بذلك لكثرة عددها .

١ المعارف (ص ٩٦) ، (بكر بن وائل) .
٢ تاج العروس (١١٩/٦) ، (رضف) ، المحبر (٢٣٤) .
٣ المحبر (ص ٢٣٤) .
٤ تاج العروس (٢٣٣/٨) .
٥ المحبر (٢٣٤) .
٦ تاج العروس (٣٧/٦) (اثف) ، الثعالبي ، ثمار (١٦١) .

ومن مفاخر القبائل اعتزالها القبائل الاخرى وعدم مخالطتها قبيلة ثانية . وتفخر الاحياء بحردها ايضاً . فيقـــال (حي حريد منفرد) ، ومعناه معتزل من جماعة القبيلة لا يخالطهم في ارتحاله وحلوله لعزته ، لأنه لا ينزل في قوم من ضعف وذلة لما هو عليه من القوة والكثرة [1] .

وذكر أن القوم الذين يكون امرهم واحداً يعرفون بـ (الخليط) . وذلك انهم كانوا ينتجعون ايام الكلأ ، فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد ، فتقع بينهم ألفـــة ، ويكونون يداً واحدة . فاذا افترقوا ورجعوا الى اوطانهم ساءهم ذلك وريعوا [2] .

وهناك قبائل ضعيفة ، لم تتمكن ان تعيش لوحدها ، لذلك تحالفت مع غيرها من قبائل اقوى منها ، واندمجت بها . كما يندمج الاشخاص بالقبائل ، بالحلف أو بالجـــوار او بالموالاة . وعند انضمام الاحياء والعشائر والقبائل الضعيفة الى الاقوى منها ، بطريقة من الطرق ، يتم ذلك ، بطقوس دينية على نحو ما سأتحدث عنه في عقد الاحلاف . بسبب ان العقود في نظر العرب تستوجب البرّ بها والوفاء ، ولهذا تعقد في ظروف خاصة امام الكهنة وفي المعابد .

القاب بعض القبائل :

ولقد لقبت بعض القبائل بألقاب . فقد قيل : مازن غسان ارباب الملوك ، وحمير ارباب العرب ، وكندة كندة الملوك ، ومذحج الطعان ، وهمدان احلاس الخيل ، والأزد اسد البأس ، والذهلان : احدهما ذهل شيبان بن ثعلبة وبشكر ، والآخر ضبيعة وذهل بن ثعلبة ، واللهزمتان : احداهما عجل وتيم اللآت ، والأخرى قيس بن ثعلبة وعنزة ، وكلهم من بكر بن وائل ، الا عنزة بن ربيعة [3] .

١ وفي هذا المعنى قول جرير :

نبني على سنن العدو بيوتنا لا نستجير ولا نحل حريدا

تاج العروس (٢/٣٣٣ وما بعدها) ، (حرد) .

٢ ديوان بشر بن أبي خازم (١٢٩) ، (تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) ، نهاية الأرب (١٨/٩) .

٣ العمدة (٢/١٩٤) .

وبعض هذه الالقاب ألقاب حسنة جميلة ، وبعضها ألقاب تشير الى قوة وبأس وشدة ، وبعض منها مقبول لا بأس به . وهي القاب كانت القبائل الملقبة بهـا تفاخر وتتباهى بها ، او تقبلها ولا ترى فيها أي بأس . وهي على العموم اما ان تكون قد نبعت من القبيلة ، كأن ينعت سيد قبيلة قبيلته بنعت ، فتتمسك به ، او ان ينعتها بذلك شاعر منها او شاعر من قبيلة اخرى ، فيذهب هذا النعت بين الناس ، ويصير سمة للقبيلة . غير ان في الألقاب بعض آخر يشير الى استصغار شأن القبيلة التي نعتت به ، مثل (القين) [1] و (الأجارب) [2] و (الأقارع) [3] ، و (قراد) [4] ، وما شاكل ذلك من ألقاب ، تحولت الى مسميات . اي تحول اللقب فصار اسم علم . وهي نعوت يظهر ان مصدرها شعر الهجاء والقبائل المعادية المتنابزة بالألقاب . وقد شاعت وثبتت لأنها أثرت في القبائل المهجوة وآلمتهـا ، فتمسك قائلوها بها ، وشاعت بين الناس حتى نسي سبب قولها ، وصارت اسم علم للقبيلة ، ولم ير من جاء بعد ذلك بأساً من الانتماء الى القبيلة المنبوزة به .

وقد رمت بعض القبائل قبيلة إياد بالفسو ، وعيّرتها به ، حتى اذا كان أحد رجالها بعكاظ ، ومعه بردا حبرة ، قام فقال : من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين ؟ فقام عبد الله بن بيدرة احد (مَهْو) حيّ من عبد القيس ، فقال : هاتها ، واشهدوا اني اشتريتُ عار الفسو من إياد لعبد القيس بالبردين . فلما أتى رحله وسئل عن البردين ، قال : اشتريت لكم بهما عار الدهر ، فوثبت عبد القيس ، وقالت :

ان الفساة قبلنا إياد ونحن لا نفسو ولا نكاد

وتفرق الناس عن عكاظ بابتياع عبد القيس عار الفسو . ثم ان هذا العار زال عن اياد ولصق بعبد القيس ، فهجوا به كثيراً . وضرب المثل بـ (عبد الله بن بيدرة) ، فقيل : (شيخ مَهْو) ، ضرب به المثل في الخسران . وقيل : أخسر صفقة من شيخ مهو [5] .

١ تاج العروس (٩/٣١٦) ، (قان) .
٢ تاج العروس (١/١٨١) ، (جرب) .
٣ تاج العروس (٥/٤٦٦) ، (قرع) .
٤ تاج العروس (٢/٤٦٥) ، (فرد) .
٥ الثعالبي ، ثمار (١٠٦)

وبعض هذه النعوت قيل في الاسلام،من ذلك رمي (تميم) بالبخل واللؤم ، بسبب هجاء الطرماح لها وقوله فيها :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت [1]

ونجد لجرير وللفرزدق وللأحابيش ولغيرهم ذماً في قبائل الشعراء المتهاجين.

ومن القبائل الملقبة : الأحابيش ، وقد تحدثت عنهم ، والمطيبون والأحلاف ، وهم من قريش ، وقد تحدثت عنهم ايضاً ، والأراقم ، وهم : جشم ، ومالك ، وعمرو بن ثعلبة ، ومعاوية ، والحارث ، بنو بكر بن حبيب بن غنم بن ثعلب ابن وائل [2] . وهم احياء من ثعلب ، جعلهم بعضهم ستة . هم : جشم ومالك وعمرو وثعلبة ومعاوية والحرث بنو بكر بن حبيب بن غنم بن ثعلب بن وائل : وقال بعض علماء اللغة ، الأراقم : بطون من بني تغلب يجمعهم هذا الاسم . قيل سمّوا بذلك لأن ناظراً نظر اليهم تحت الدثار وهم صغار ، فقال : كأن أعينهم اعين الأراقم ، فلج عليهم اللقب [3] .

وعرفت بعض القبائل بـ (البراجم) ، وهم خمسة بطون من بني حنظلة : قيس ، وغالب ، وعمرو ، وكُلفة ، والظليم ، وهو مرّة . قيل انهم انما سموا بذلك ، لأنهم تبرجموا على اخوتهم يربوع ورييعة ومالك ، وكلهم ابوهم حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرة [4] . وذكر ايضاً انهم انما سموا البراجم ، وذلك لأن اباهم قبض اصابعه ، وقال كونوا كبراجم يدي هذه . اي لا تفرقوا ، وذلك اعز لكم . وقيل : لا ، وانما سموا بذلك ، لأنهم تحالفوا ان يكونوا كبراجم الأصابع في الاجتماع [5] .

وعرف (الثعلبات) بهذه التسمية ، لانهم بطون ، اسم كل بطن منهم (ثعلبة) . وهم : ثعلبة بن سعد بن ضبّة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وثعلبة بن عديّ

١ امالي المرتضى (١/٢٨٩) .
٢ العمدة (٢/١٩٤) .
٣ تاج العروس (٨/٣١٧) ، (رقم) .
٤ العمدة (٢/١٩٥) .
٥ تاج العروس (٨/١٩٩) ، (البرجمة) .

فزارة ، وأضاف اليهم قوم : ثعلبة بن يربوع [1] . ويقال لهم (الثعالب) ايضاً . وهم قبائل شتى ، فثعلبة في (بني اسد) ، وثعلبة في تميم ، وثعلبة في ربيعة ، وثعلبة في قيس . ومنهما الثعلبتان من طيء . وهما ثعلبة بن جذعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة من طيء . وثعلبة بن رومان بن جندب المذكور . وذكر ان الثعالب في طيء يقال لهم مصابيح الظلام ، كالربائع في تميم . [2]

وأما (الرباب) ، فهم ضبّة بن أد بن طابخة ، وتيم ، وعديّ ، وعوف ، وهوعكل ، وثور ، وكل هؤلاء بنو عبد مناة بن أد بن طابخة [3] . قيل انهم انما سمّوا بذلك لتفرقهم ، وقيل : سمو رباباً لترابهم ، اي تعاهدهم وتحالفهم على تميم . وقيل : سمّوا بذلك لأنهم أدخلوا أيديهم في رُبّ وتعاقدوا وتحالفوا عليه فصاروا يداً واحدة [4] .

واما (الأجارب) ، فهم : خمس بطون من (بني سعد) ، وهم : ربيعة ، ومالك ، والحارث ، وعبد العزى ، وبنو حمار [5] . وورد الأجارب حيّ من بني سعد بن بكر من قيس عيلان ، واذا قيل : الأجربان ، فهما : عبس وذبيان [6] .

و (الحرام) ، هم : بنو كعب بن سعد بن زيد مناة [7] . وذكر ان في العرب بطوناً ينسبون الى (آل حرام) . منهم بطن في تميم وبطن في جذام وبطن في بكر بن وائل . وهناك بطون اخرى عرفت بـ (حرام) [8] .

وأما (الضباب) ، فهم (بنو عمرو بن معاوية بن كلاب) ، قال بعض اهل الانساب انهم اربعة بطون من (بني كلاب) . وقال بعض آخر . انهم اكثر ، وأوصلوهم الى اربعة عشر بطناً [9] .

---

١ العمدة (٢/١٩٥) .
٢ تاج العروس (١/١٦٥) ، (ثعلب) .
٣ العمدة (٢/١٩٥) .
٤ تاج العروس (١/٢٦٤) ، (ربب) .
٥ العمدة (٢/١٩٥) .
٦ تاج العروس (٢/١٨١) ، (جرب) .
٧ العمدة (٢/١٩٥) .
٨ تاج العروس (٨/٢٤٣) ، (حرم) .
٩ العمدة (٢/١٩٥) ، تاج العروس (١/٣٤٥) ، (ضبب) .

واشتهرت بعض القبائل والعشائر والبيوت بنعوت لازمتها في الجاهلية وامتدت الى الاسلام ، فقد عرف بنو مخزوم وبنو جعفر بن كلاب بالتّيه والكبر ، حتى قيل : (اربعة لن يكونوا ومحال ان يكونوا : زبيديّ سخيّ ، ومخزوميّ متواضع ، وهاشميّ شحيح ، وقريشيّ يحب آل محمد) [1] .

واشتهرت (طيء) بالجود . لكون حاتم وأوس بن حارثة بن لأم منهم [2] . وعرفت (باهلة) باللؤم ، حتى ضرب بها المثل في اللؤم ، فقيل : لؤم باهلة [3] . واشتهر (بنو ثعل) بالرمي ، وذكروا بذلك في شعر لامرىء القيس [4] . واكتسبت (مدلج) شهرة واسعة في القيافة ، اذ اختصت بها من بين سائر العرب [5] . وبرز (بنو لهب) في العيافة . فهم أزجر العرب وأعينهم [6] . وعرفت (إياد) بخطبائها ، وملوك غسان بثريدهم ، الذي قيل له : (ثريدة غسان) [7] . وعرفت كندة بغلاء مهور بناتهم [8] ، وعرفت (خزاعة) بالجوع والأحاديث ، قيل لزهمان : ما تقول في خزاعة ؟ قال جوع وأحاديث [9] . اي فقر ودعاوى فارغة وأضغاث أحلام .

وعرفت بعض القبائل بـ (الضبيعات) . وهي (ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) ، أشرفهن . و (ضبيعة أضجم بن زبيعة بن نزار) ، و (ضبيعة بن عجل بن لجيم) [10] . وذكر أيضاً أن في العرب قبائل تنسب الى (ضبيعة) : (ضبيعة ابن ربيعة بن نزار) ، وهو المعروف بـ (الأضجم) ، و (ضبيعة بن اسد ابن ربيعة) ، قال بعضهم انما ضبيعة أضجم ، و (ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ابن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل) ، وهو ابو رقاش أم مالك وزيد مناة ابني شيبان ، وهم رهط الأعشى : ميمون بن قيس . و (ضبيعة بن عجل بن

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٧) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٧) .
٣ المصدر نفسه (١١٩) .
٤ كذلك (١٢٠) .
٥ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٢٠ وما بعدها) .
٦ المصدر نفسه (١٢١) .
٧ كذلك (١٢٢ وما بعدها) .
٨ كذلك (١٢٣) .
٩ البيان (٩/١) ، (لجنة) .
١٠ المحبر (٣٣٥) .

لجيم بن صعب بن بكر بن وائل ، رهط الوصاف . و (ضبيعة بن فريد) . بطن من الأوس من بني عوف بن عمرو ، وضبيعة بن الحارث العبسي [1] .

ودكر (ابن حبيب) اسماء قبائل عرفت بـ (الربائع) . هي في (تميم) . وهي : (ربيعة الجوع بن مالك بن زيد مناة بن تميم) ، و (ربيعة بن حنظلة ابن مالك بن زيد بن تميم) ، و (ربيعة بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم) ، كل واحد منهم عم صاحبه . و (ربيعة بن كعب بن سعد ابن زيد مناة) ، وهم (الحباق) [2] . وورد : في تميم ربيعتان : الكبرى وهي ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وتدعى : ربيعة الجوع . والصغرى وهي : ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم [3] .

اسماء اجداد القبائل :

ولكلّ قبيلة – كما ذكرت – جد تنتمي اليه وتفاخر وتباهي به . وقد يكون هذا الجـــدّ جداً حقيقياً ، اي انساناً عاش ومات ، وساد القبيلة . وترك اثراً كبيراً في قبيلته ، حتى نسبت القبيلة اليه . وقد يكون الجد اسم حلف تكوّن ، وتألف من قبائل عديدة ، حتى عرفت به ، ودعيت بذلك الحلف ، وصار وكأنه اسم جد وانسان عاش . ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهـــل الاخبار ، فقد رووا ان تنوخ قبائل عديدة ، اجتمعت وتحالفت ، وأقامت في مواضعها [4] .

وقد يكون اسم موضع ، اقامت قبيلة به ، فنسبت اليـــه . كما يذكر اهل الاخبار من اسم (غسان) . وقد يكون اسم إلٰه عبد ، فنسب عباده اليه مثل (بنو سعد العشيرة) ، و (تالب ريام) جد قبيلة (همدان) ، وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ما شابه ذلك ، مما يدخل في دراسة أصول الأسمـــاء

---

١ تاج العروس (٥/٤٢٧) ، (ضبع) .
٢ المحبر (٢٣٥) .
٣ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) .
٤ تاج العروس (٢/٢٥٤) ، (تنخ) .

ومصادرها واشتقاقها ، وهو شيء مألوف نراه عند غير العرب ايضاً ، فليس العرب بدعاً وحدهم في هذه الأمور .

وما يذكره ويرويه اهل الاخبار عن ازمنة اجداد القبائل ، فيه اغلاط وأوهام . فقد يرفعون زمان رجل فيبعدونه كثيراً عن الإسلام ، بينما هو من الرجال الذين عاشوا قبيل الإسلام . وقد يجعلون الرجل من الجاهلية القريبة من الإسلام ، بينما يجب وضعه قبل الإسلام بقرون . ثم هناك أخطاء فاضحة في سرد سلاسل النسب ، وفي اسماء الاشخاص ، ولا سيما في الانساب القديمة ، بحيث يصعب على الباحث الأخذ بها والتأكد منها . اما بالنسبة الى الأنساب القريبة من الإسلام ، فان وضعها يختلف عن وضع الأنساب المذكورة ، اذ يغلب عليها طابع الصحة والضبط .

وقد ذهب المستشرق (بلاشير) الى ان طريقة النسابين بالنسبة الى الارهاط ، هي طريقة ايجابية مقبولة ، ولكنها لا تستند الى اسس صحيحة بالنسبة للقبائل والاحلاف . بسبب ان تحالف القبائل وتكتلها ، راجع الى عوامل المصلحة الخاصة والمنافع السياسية ، وهي تتغير دوماً بتغير المصالح ، تتولد تبعاً لذلك احلاف لم تكن موجودة وتموت احلاف قديمة . وتظهر قبائل كبيرة وتموت غيرها . ولهذا التغير فعل قويّ في تكوين الانساب وفي نشوئها اذ تتبدل وتتغير الانساب تبعاً لذلك التغير ، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد على الانساب الكبرى ، التي دوّنها علماء النسب وجمعوها في مجموعات ، وشجروها حفدة وآباءً وأجداداً [1] .

والمصالح السياسية للقبائل لا تقيم وزناً للأخوة وللنسب . فاذا اختلفت المصلحة ، فلا تجد القبائل عندئذ اي غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها لتتحالف مع قبيلة غريبة عنهـا في النسب ، ومحاربة اختها التي انفصمت عنها . فعبس مثلاً تحالفت مع (بني عامر) في حرب البسوس على (ذبيان) ، وهي اختها ، وتحالفت ذبيان مع (تميم) على (عبس) ، مع ما بين (تميم) و (عبس) و (ذبيان) من عداء قديم . وقد وقعت ايام بين (تغلب) و (بكر) مع

---

١ بلاشير ، تأريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) تعريب الدكتور ابراهيم كيلاني (ص ٢٥ وما بعدها) .

صلة الرحم والقرابة القوية التي ربطت بين القبيلتين الاختين [1] . وقع كل ذلك وحدث بسبب تغير المصالح التي كانت تربط فيما بين هذه القبائل .

ارض القبيلة :

ولكل قبيلة ارض تعيش عليها وتنزل بها وتعتبرها ملكاً لها ، تنتشر بها بطونها وعشائرها ، ولا تسمح لغريب النزول بها والمرور بها الا بموافقتها وبرضاها . وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها واعتبرها ارضاً خاصة به .

وتكون الارض التي تحل القبيلة بها (منزلاً) لها ، و (منازل) لأبنائها الذين ينزلون بها . يضربون بها خيامهم . فتكون الارض مضارب لها . تستوطنها وتقيم بها وتصير وطناً لها ، اي دار اقامة ، ما دامت تقيم بها . وموضع بيوتها . لذلك يعبر عن الارض التي تقيم بهـا القبيلة بـ (بيوت القبيلة) و بـ (بيوت العشيرة) ، لأنها مضرب البيوت .

وتمتد ارض القبيلة الى المواضع التي تصل بيوتها اليها . فما يقع الى الداخل فهو من موطن القبيلة ، وما وقع خارج حدود نفوذ القبيلة خرج عن مواطنها . وتعين الحدود بالظواهر الطبيعيـة البارزة ، مثل تلال أو أودية أو رمال أو ما شاكل ذلك . ونظراً الى عدم تثبيت القبائل لحدودها على الارض برسم معالم بارزة لها ، صارت الحدود سبباً من اسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بين القبائل .

وتكون مواضع الماء في ارض القبيلة قبلة ابنائها ، يستقون منها ما يحتاجون اليه من (اكسير الحياة) . وتكون هذه المواضع آباراً او عيون ماء او حسياً وما شاكل ذلك . وتتفق القبيلة فيما بينها على حقوق السقي . ويؤدي الاخلال بحقوق السقي الى وقوع نزاع ، قد يؤدي الى قتال ، ولا سيما في ايام القيظ وانحباس المطر ، حيث تشتد الحاجة الى الماء ، ويصير افتقاده سبباً لهلاك الانفس والمال . والقاعدة ان ماء القبيلة مشاع في القبيلة . اما المياه المحمية : المياه التي تحمى للسادة والرؤساء ، والمياه الخاصة ، كالآبار التي يحفرها اصحابها ، فتكون خاصة بهم . لا يجوز الاستقاء منها الا باذن .

١ بلاشير (٢٥) .

ولكل قبيلة حق حماية ارضها . شأنها في ذلك شأن الدول . واذا اراد غريب اجتياز ارضها فلا بد من ان يكون في حماية انسان منها . واذا كان المجتاز جماعة ، كأن يكون قافلة او قبيلة او حيّاً يريد التنقل الى ارض اخرى ، ولا بد له من المرور بأرض هـــذه القبيلة للوصول الى هدفه ، فعليه اخذ اذن من القبيلة يخوله جواز المرور بها ، والا تعرض للمنع والقتال . لذا كان لا بد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور ، بدفـــع حق المرور ، وهي اتاوات تعارفت القبائل آنذاك على اخذها من المارة .

سادات القبائل :

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة ، مثـــل ملك مملكة بالنسبة لمملكته . فهو الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب . يقصده ذوو الحاجات من ابناء القبيلة ان احتاجوا الى حاجة . وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل ، ويترأسها ، وقد ينصب نفسه ملكاً عليها ، كالذي فعله ملوك كندة من بني (آل اكل المرّار) وغيرهم من الملوك . وقد لا نخطىء اذا ما قلنا ان اكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب ، كانوا سادات قبائل في الأصل ، استغلوا مواهبهم وقابلياتهم ، وامكانية قبيلتهم ، وسخروها في سبيل الحصول على الملك ، وعلى التلقب بلقب (ملك) ، فنالوه .

ويقال للسيد : المسوّد . ويذكر علماء اللغة ان السيد يطلق على الربّ والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمل أذى قومه والزوج والمقدم والرئيس . وسيد القبيلة هو رئيسها . تقول العرب : (فلان سيدنا) اي رئيسنا والذي نعظمه ، ونقول (ساد قومه) [1] . وهي من الألفاظ المستعملة عند عرب الحجاز ونجد والعراق وبلاد الشام ، اما العربية الجنوبية ، فقد استخدمت ألفاظاً اخرى بدلاً عنها .

ويقال لسيد القبيلة (رئيس القبيلة) . والرئيس ، سيد القوم . والرياسة : السيادة . ويقال فلان رأس ورئيس القوم [2] . ورؤساء القبائل هم سادات القبائل

---

١ اللسان (٣/٢٢٨ وما بعدها) ، (سود) .
٢ اللسان (٦/٩٢) ، (رأس) .

والمتولون لامورها . كما يقال فلان : ساد قومه ، وهو سيد القوم وسيدهم . فاللفظتان مترادفتان وفي معنى واحد . ووردت لفظة (زعيم) بمعنى سيّد القوم ورئيسهم والمتكلم عنهم . والجمع زعماء . كما وردت الزعامة ، الشرف والرياسة على القوم وحظ السيد من المغنم [1] . غير ان استعمال (زعيم القبيلة) ، أقل في الكلام من استعمال (سيد) و (رئيس) .

وأنا حين استعمل (سيد قبيلة) ، اقصد بها الرئيس الفعلي لقبيلة ، المسؤول عنها ، والمدبر لامورها والمرجع الاخير لها ، والذي يكون كالملك او الحاكم بالنسبة لقبيلته لأن هناك سادات آخرين سادوا في القبيلة وقد عرف خبرهم في كل مكان ، وربما اشتهر ذكرهم اكثر من اشتهار اسم سيد قبيلتهم ، ومع ذلك فانهم لا يُعدون رأس تلك القبيلة . لأن الرأس المسؤول عن القبيلة رأس واحد ، الا ان العرف ان يسود الرؤساء في القبائل ، هو كما يترأس الاشراف امر مدينة ، بان يترأسوا عمائر القبيلة ثم فروعها الدنيا التي تلي العمائر ، فهم رؤساء في قبيلة بالمعنى المجازي ، الذي جوز اطلاق لفظة (القبيلة) حتى على الأفخاذ والبطون ، بل والبيوت . بأن يبزوا الرئيس بالخصال الحميـــدة ، التي تجلب لهم الشهرة والسيادة ، وتجعل اسمهم يعلو اسم رئيس القبيلة في كثير من الاحايين .

صفات الرئيس :

وعلى من يسود في قومه ان يتحلى بخلال حميدة وسجايا طيبة ، تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم ، كأن يتحمل أذى قومه ، ولذلك قيل للسيد (محتمل أذى قومه) ، وأن يكون شريفاً في افعاله حليماً كريماً ، يغض نظره عن اعمال الحمقى والجهلة ، وأن يتجاهل السفلة والسفهاء الجاهلين . فلا يغضب ولا يثور ، وأن يكظم غيظه . جاء في المثل : (احلم تسد) [2] . وان يحترم الناس مهما كانت منازلهم . وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم ، وأن يكون ملاذهم ، وأن يجعل

١ تاج العروس (٨/٣٢٤ وما بعدها) ، (زعم) ،
Goldziher, Muh. Stud., II, S., 52.

٢ بلوغ الأرب (١/٩٩ وما بعدها) .

بيته بيتاً للجميع ومضيفاً لكل من يفد اليه من كبير أو حقير أو صغير ، وأن يفتح قلبه للجميع [1] .

وعلى الرئيس ان يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو ، وأن يكون شجاعاً لا يهاب الموت ، حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، وعليه ان يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب . لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس ابنائه ، وهو أب القبيلة . واذا لا يكون قدوة لأبنائه في ساعات الشدة والخطر ، فترت همم ابناء القبيلة . ولا يثير القبائل الا الشعارات والنخوة وإلهاب المشاعر ، حتى تندفع اندفاعاً في القتال . والرئيس هو روح القبيلة وشعارها ، فاذا اصيب بمكروه أو جبن في القتال ، واذا خر صريعاً في المعركة ، هربت قبيلته في الغالب ، وتراجعت القهقرى ، الا اذا وجد في القبيلة من يؤجج فيها نار الحماسة ويبث فيها العزيمة للوقوف والصمود . ويكون مثل هذا الرجل من الشجعان الأقوياء اصحاب الارادة القوية الذين يعرفون نفسية قبيلتهم ، والا فليس من السهل على رجل التأثير على قبيلة وهي في مثل هذا الوضع .

ولأثر الرئيس في مصير الحرب ، كان الفرسان يوجهون كل قوتهم نحو الرؤساء ، لأنهم على علم بأنهم ان تمكنوا من الرئيس فقتلوه ، غلبوا عدوهم في الغالب وقضوا عليه . فهو الروح المعنوية عند الاعراب . يليه حامل اللواء فاذا سقط حامل اللواء قتيلاً أسرع من عين ليكون خليفته في التقاط الراية وحملها ، واذا سقط هذا ايضاً اسرع من يأتي بعده ، وهكذا . فان سقوط الراية معناه هزيمة منكرة ستحيق بمن سقطت رايته ، ولهذا كانوا يختارون رجالاً شجعاناً يولونهم أمر اللواء ، بحيث اذا سقط احدهم اخذ من يليه مكانه ، وهكذا حتى النصر .

صعوبة انقياد القبائل :

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل يسير ، لا سيما اذا كانت القبيلة قبيلة كبيرة ذات عشائر وأرهاط منتشرة في مواضع متباعدة . فان رؤساء العشائر يستغلون فرصة ابتعادهم عن ارض الأم ، ويعلنون انفصالهم عنها ، وتوليهم امرهم بأنفسهم .

---

١ لامانس ، مجلة المشرق ، ١٩٣٢م عدد ٢ (١١٠) .

فيحدث الانفصام والانقسام ، وقد يعلن الرئيس حرباً على العشيرة العاقة المنشقة ، ولهذا يعد سيّد القبيلة الذي تجتمع له رئاسة قبيلة كبيرة من السادات المحظوظين . وحظه هو ثمرة ذكائه ومواهبه وقابلياته ولا شك . ومن هؤلاء المحظوظين الذين دوّن اهل الاخبار اسماءهم : (جَهْبل بن ثعلبة اليشكري) ، سيد (بكر بن وائل) ، فقد اجتمعت (بكر) حوله ، و (عمرو بن شيبان بن ذهل) ، و (عمرو بن قيس الأصم) و (الكلح) و (بشر بن عمرو بن مسعود) ، و (همام بن مرة) و (الحارث بن عباد) [1] ، وقد اجتمعت حولهم (بكر ابن وائل) ، وانضوت تحت لوائهم ، وذلك في مناسبات أشار اليها اهل الأخبار ، مثل وقوع بعض الايام . ولولا هذه الايام ، وتلك المناسبات التي اضطرت القبيلة على التكتل والتجمع فيها حول زعيم واحد ، ليخلّصها من المخاطر ، لما تجمعت حوله ، لأن التجمع لا يلتئم مع طبع أهل البادية ، الذين جبلتهم الطبيعة على التشتت والتفرق .

وذكر اهل الاخبار ان (خالد بن جعفر بن كلاب) ، و (عروة الرحال ابن عتيبة بن جعفر) ، و (الأحوص بن جعفر) ، و (عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ، هم اربعة اجتمعت عليهم (هوازن) ، ولم تجتمع (هوازن) كلها في الجاهلية الا على هؤلاء الاربعة . وهم كلهم من (بني جعفر بن كلاب) [2] . مما يدل على صعوبة انقياد عشائر (هوازن) لزعامة رجل واحد . وهذا مثل واحد من أمثلة صعوبة انقياد القبائل لرئاسة رئيس ، لأن الانقياد لرئيس واحد ، معناه في نظر رؤساء العشائر ، خضوعهم لغيرهم واستذلالهم له وتنازلهم عن حريتهم وعن استقلالهم في ادارة شؤون عشائرهم لغيرهم ولو كان هذا الرئيس منهم ، أضف الى ذلك الخسائر المادية التي قد يصابون بها من هذا الانقياد .

وقد عرفت قبائل (ربيعة) خاصة بتخاصمها وبتباغضها وبتحاسد رؤسائها ، لذلك لم تقبل في الغالب بتملك رئيس منها عليها . بل كان سادتها يراجعون التبابعة على ما يقوله اهل الاخبار لتمليك سيد منهم عليهم . كانوا يراجعون اليمن كلما اختلفوا فيما بينهم على تمليك ملك عليهم . وقد ذكر اهل الاخبار ان من جملة

١ المحبر (ص ٢٥٤) .
٢ المحبر (٢٥٣ وما بعدها) .

اسباب تعيين والد الشاعر (امرىء القيس) الكندي ملكاً على بني اسد وتعيين أعمامه ملوكاً على القبائل الاخرى ، هو تناحر سادات ربيعة فيما بينهم ، وتباغضهم وتفرق كلمتهم ، حتى كان كل واحد منهم يرى انه أولى من غيره بالملك ، فدبّ الخلافُ بين القبائل ، وتطاول السفهاء على الاشراف وأهل البيوتات ، وعندئذ وجد سادات القبائل ان الأمن لا يرجع اليهم الا بذهابهم الى كندة لتنصيب ملوك منها عليهم . فكان ما كان من تنصيب والد الشاعر على (بني اسد) وتنصيب أعمامه على القبائل الاخرى . الا ان الأمن لم يستتب ولم يستقرّ طويلاً بين هذه القبائل المتنازعة ، اذ قرر الرحيل عنها ، وعاد الخصام داء (ربيعة) الى وطنه . وعادت حليمة الى عادتها القديمة على ما يقوله اهل الامثال .

وقد أشار اهل الاخبار الى رجال ذكروا انهم تمكنوا من حكم معدّ وربيعة . ومعنى ذلك انهم كانوا من ذوي الشخصيات القوية . وبذلك تمكنوا من فرض انفسهم على هذه القبائل المتباغضة . من هؤلاء : حذيفة بن بدر . وهو من سادات غطفان وبيتهم . وهو والد (حصن) ابو عيينة . وقد ادرك (عيينة) النبيّ ، فأسلم ثم ارتد وأسلم بعد ذلك على يد ابي بكر [1] . وقد قاد (حذيفة) (بني فزارة) و (مرّة) يوم النّسار ، ويوم الجفار ، وفي حرب داحس حتى قتل فيها يوم الهباءة . وقد عرف بـ (ربّ معدّ) [2] . وما كان ليعرف بذلك لو لم يكن من اصحاب القوة والمكانة حتى ساد قبائل معدّ .

ومن سادات (ربيعة) (الأفكل) ، و (عمرو بن جعيد) من (بني الديل) . وكان ذا بغي ، فسارت اليه (بنو عَصَر) فقتلوه [3] . و (الحارث الأضجم بن عبد الله بن ربيعة بن دوفن) ، من (بني دوفن) . قديم السؤدد فيهم كانت تجبى اليه اتاوتهم [4] . و (عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم بن النمر بن قاسط) ، وكان سيد (النمر بن قاسط) في الجاهلية وصاحب مرباعهم [5] .

١ ابن دريد ، الاشتقاق (١٧٣) .
٢ المحبر (٢٤٩) ، (٤٦١) ، جمهرة (٢٤٣) .
٣ الاشتقاق (١٩٧) .
٤ الاشتقاق (١٩٣) ، جمهرة (٢٧٥) .
٥ الاشتقاق (٢٠٢) ، جمهرة (٢٨٣) .

وكان (القُدار بن الحارث) رئيس ربيعة في أول الإسلام[1] . وورد ان (القدار بن عمرو بن ضبيعة) ، كان رئيس ربيعة ، يلي العزّ والشرف فيهم[2] .

ويمتاز سيد القبيلة عن سائر رجال قبيلته ببيته الكبير ، المكوّن من خيمة ضخمة ، والتي قد تتكون من جملة قطع من النسيج خيطت بعضها الى بعض لتتكون منها خيمة كبيرة . تكون مضيفاً للرئيس ومجلساً للقوم ، يؤمه سادات القبيلة وأشراف الأحياء . وموئلاً لذوي الحاجات من الناس . وله خيام أخرى ، أعدت لحريمه ولأهله . فهي منازل رئيس القبيلة الخاصة به وبأفراد أسرته .

وامتاز الرئيس عن أفراد قبيلته بكثرة عدد نسائه . فسيد القبيلة مزواج في الغالب ، عنده المال ، وعنده الجاه والرئاسة ، فلا يجد صعوبة في الحصول على زوجات صغيرات السن لينجبن له أولاداً ، يكونون له حصناً حصيناً وأمناً له على ماله ، وعوناً له على القبيلة . فيحمي بهم نفسه ممن قد يطمع في الرئاسة وفي انتزاع السيادة منه بالقوة .

ومن واجب الرئيس الاشراف على تقسيم الغنائم ، ومن حقه المرباع إن كان من ذوي المرباع ، وله ان ينفق من جيبه على الضيوف ، وان يفتح بيته للقادمين اليه من مختلف الناس ، وان يستقبل ضيوف القبيلة بوجه فرح بشوش . وان يرعى شؤون قبيلته ، ويسأل عن أبنائها ، وعليه ان يسعى لفك من يقع من أبناء عشيرته أسيراً في أيدي قبيلة أخرى ، وان يشارك قومه في تحمل الديات ، حين يعجز رجال القبيلة عن حملها ، وعليه ان يعين أتباعه في كل جناية يجنونها ، فهي وان صدرت من غيره لكنها تقع في النهاية على رأس سيد القبيلة . فعليه وحده ايجاد حل لها ومخرج . ومن هنا كنّت العربُ عن سيد القبيلة بقولها (سيد معمم) ، يريدون ان كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه[3] .

رئاسة القبائل :

لا نملك نصاً جاهلياً فيه شيء عن الشروط التي يجب ان تتوفر في الرجل كي

١ الاشتقاق (١٩٥) .
٢ تاج العروس (٣/٤٨٣) ، (قدر) .
٣ عيون الأخبار (١/٢٢٦) .

يكون رئيساً على قبيلة . ولا نجد في روايات أهل الأخبار أخباراً واضحة صريحة عن طريقة تولي الرئاسة عند الجاهليين . لذا لا نستطيع البت في موضوع شروط انتقال الرئاسة من رئيس قبيلة متوفى أو مخلوع الى رئيس جديد . وهل كانت الرئاسة وراثية على طريقة انتقال العروش في النظام الملكي ، أم كانت اختياراً وانتخاباً وشورى ، بمعنى ان اختيار الرئيس يكون برأي من رؤساء القبيلة ، وليس بسنة الارث . والذي ظهر لنا من دراسة أخبار أهل الأخبار في هذا الموضوع ان الجاهليين كانوا قد ساروا على سنة الارث في تولي الرئاسة كما ساروا على طريقة الاختيار .

أما انها كانت رئاسة وراثية ، فلأنها رئاسة مثل سائر الرئاسات عند العرب ، كرئاسة المكربين والملوك والأقيال والأذواء والأقيان وكل الرئاسات الجاهلية الأخرى . وقد كانت هذه الرئاسات رئاسات وراثية في الأغلب ، لذا كانت رئاسة القبيلة بالوراثة أيضاً . تنتقل الرئاسة من الأب الى الابن الأكبر . ويؤيد هذا الاستنتاج ما نجده في أكثر روايات القبائل ، وتولي الأبناء رئاستها بعد الآباء .

وأما انها بالنص والتعيين ، فكالذي ذكروه من أمر اختيار (حصن بن حذيفة ابن بدر) ابنه (عيينة) لرئاسة قومه من بعده . ولم يكن عيينة أليق من غيره بأن يكون سيد قومه ، فاستدعى أولاده وقال لعيينة : أنتَ خليفتي ورئيس قومك من بعدي . ثم قال لقومه (بني بدر) : لوائي ورياستي لعيينة ، ثم أوصاهم بما يجب ان يفعلوه على عادة السادات عند اشتداد المرض بهم وشعورهم بدنو أجلهم . من وجوب التكتل والتهيؤ للقتال وعدم التجرؤ على الملوك ، فان أيديهم أطول من أيدي الرعية . فسمعوا له وأطاعوا ، واختاروه رئيساً عليهم[1] .

وأما انها شورى ورأي ، فعند عدم وجود عقب للرئيس المتوفى ، أو عند وجود تنافس وتباغض بين أبناء الرئيس المتوفى بسبب كونهم من زوجات مختلفات فيما بينهن ، فيخشى عندئذ من انقسام القبيلة على نفسها ، ويحسم الخلاف باختيار أحزم الأبناء أو تنصيب رجل قريب أو بعيد عن الرئيس ، يجدونه أهلاً وكفؤاً لتولي الرئاسة فيولونها إيّاه . وقد يلجأون الى الرأي في حالة تشتت شمل القبيلة ، بظهور رجال أشراف فيها ، لهم كفاءات وقابليات وشهرة تفوق شهرة أسرة

---

١ أمالي المرتضى (١/٥٣١) .

الرئيس المتوفى ، يطمعون في الرئاسة ، فينتخبون اكفأهم وأقواهم ليكون الرئيس الجديد .

وقد لا تجتمع كلمة المتنافسين على الرئاسة ، ولا تتفق على اختيار رئيس ، فلا يكون أمام القبيلة في مثل هذه الحالة سوى اللجوء الى الملوك في الغالب لتعيين رئيس عليهم يختارونه من جماعتهم وينصبونه سيداً عليهم . وقد كان هذا شأن قبائل (معدّ) في الغالب ، إذْ كانت قبائلها متبدية متنافرة ، ذات رؤساء متحاسدين ، لا يقرون برئاسة واحد منهم ، لذلك كانوا يلجأون الى ملوك اليمن لتعيين رئيس من غيرهم عليهم ، وبذلك يحل الخلاف .

ونجد في شعر (عامر بن الطفيل) ، وهو أحد مشاهير فرسان العرب . تغنّياً بفعاله وبشجاعته وبدفاعه عن قومه ، وتبجحاً بسيادته على قومه : واعتزازاً بأن سيادته هذه لم تأت اليه عن وراثة ، وانما جاءته بفعاله وبدفاعه عن قومه وذبّه عن حماهم ، فسوّدوه لهذه الخلال عليهم ، ولم يسوّدوه لانه (ابن سيد عامر) ، وفي هذا الشعر دلالة على ان الرئاسة كانت بالوراثة ، وان والد (عامر) كان سيّداً ، فأراد (عامر) ان يتبجح بنفسه على غيره ، بأنه ليس من أولئك الرؤساء الذين يرثوا السيادة إرثاً ، فلا دخل لهم بمجيئها اليهم ، وانما أخذها عن جدارة واستحقاق ، ولو لم يكن أبوه سيّداً ، لجاءته السيادة تركض اليه ، لما فيه من محامد ومكارم . فسيادته سيادة وراثة لانه ورثها عن أبيه ، وسيادة جدارة جاءته لما فيه من خصال السادة الأشراف[1] .

خصال السادة :

يذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا لا يسوّدون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وقالوا : قيل :

١ انّي وان كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله ان أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي اذاها وأرمي من رماها بمنكب

الشعر والشعراء (١٩٢) ، البلاذري ، أنساب (١٧٩/٢) ، ابن قتيبة ، عيون الأخبار (٢٢٧/١) .

لقيس بن عاصم بم سدت قومك ؟ قال ببذل الندى وكفّ الأذى ونصرة المولى ، وتعجيل القِرى . وقد يسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم . ووصف بعضهم السؤدد : بأنه اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة . وقد سئل أحـد السادات بأي شيء سدت قومك ؟ فقال : (إني — والله — لأعفو عن سفيههم ، وأحلم عن جاهلهم ، وأسعى في حوائجهم وأعطي سائلهم ، فمن فعل فعلي فهو مثلي ، ومن فعل احسن من فعلي فهو أفضل مني ، ومن قصر عن فعلي فأنا خير منه)[1] .

وذكر أهل الأخبار أيضاً ، ان العرب كانت تسوّد على أشياء . فكانت مضر تسود ذا رأيها . وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب[2] .

والرئيس الناجح ، هو الرئيس الذكي الفطن الذي تكون له قدرة وقابلية على التصرف بذكاء وبحذر وفقاً لعقلية القبائل . فيعرف كيف يعامل كل شخص يأتي اليه المعاملة التي تلائمه وتليق به ، بحلم وصبر وأناة . وبقساوة وغلظة أحياناً من أجل اخافة أتباعه ، لخوف القبائل من البطاش الظالم . على ألا يسرف في ظلمه ويمعن في غيّه ، فيقع له ما وقع لكليب وائل ولأمثاله من الذين أسرفوا في الاعتماد على أنفسهم وعلى قابلياتهم ، فأهلكوا أنفسهم . ولهذا كان من شأن عقلاء سادات القبائل عرض المنازعات والخصومات القبلية للحكم فيها . وبذلك يخلصون أنفسهم من مشكلات صعبة كانت ستقع تبعتها على أكتافهم فيما اذا انفردوا بالنظر بهـا دون سائر الرؤساء .

ومن أعراف الحكم عند القبائل ، ان سيد القبيلة يستمد رأيه من رأي أشراف قبيلته ووجوهها في الامور الهامة التي تخص حياة القبيلة . ليستنير برأيهم ، وليعرف رأي أتباعه في معالجتها . وتساعد هذه المشورة سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكن من ادارة القبيلة ادارة حسنة ترضي الغالبية . وقـد توصل الرئيس الى النجاح والنصر في الغزو . فيرتفع اسمه ويعلو نجمـه . ولا زال سادات القبائـل يستمعون الى مشورة رؤساء القبيلة ، ويقيمون لرأيهم وزناً الى يومنا هذا . ورأيهم هذا هو مجرد مشورة ونصح . بمعنى انه لا يلزم سيد القبيلة بوجوب العمل بموجبه . فقد ينبذه ويعمل برأيه وبقراره ، لا سيما اذا كان قوي الشخصية متجبراً عنيداً .

---

١ بلوغ الأرب ٢/١٨٧ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (٢/١٨٧) .

وقد يكون النجاح حليفه ، فتزداد بذلك هيبته على أتباعـه ، وقد يمنى بخسارة فادحة ، فتقضي عليه وعلى رئاسته وربما تقضي على حياته أيضاً . والنظام القبلي بعد ، هو نظام استشاري ، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط ، أمـا الأفراد أي أبناء القبيلة وسوادها ، فلا رأي لهم في تسيير الأمور ، إلا اذا برز أحـدهم وظهر في قبيلته بمواهب يعترف بها ، كالحكمة أو الشرف ، فقد يدخل في عداد أولي الرأي ، ويكون له عندئذ عندهم رأي مسموع .

وعلى الرغم من استبداد بعض السادة برأيهم ، وحكمهم بما يوحي اليه بـه حسهم وشعورهم ، وتصرفهم في الأمور تصرفاً كيفياً ، فانهم كانوا يقيمون مع كل ذلك وزناً للرأي ، وقد يكون هذا الرأي رأي رجل مغمور من عامة أبناء القبيلة ، أو رأي شاعر أو خطيب أو أي شخص آخر من أبناء القبيلة . فالحكم عند القبائل بهذا ، حـكم فردي استشاري يتوقف الرأي فيه على شخصية وكفاءة رئيس القبيلة ، وعلى شخصية وكفاءة رؤساء البطون والأحياء .

وقد أدت غطرسة وعنجهية بعض سادات القبائل بهم الى الموت فقـد لجأوا الى القسوة والقهر في الحكم واستبدوا برأيهم استبداداً فرّق بينهـم وبين رؤساء قبيلتهم ، مما دفع بعض فرسان القبيلة وشجعانها على قتلهم للتخلص منهم ، كالذي كان من أمر (كليب وائل) ، الذي تعسف في حكمه وتجبر فاختـار خيرة الأرضين الخصبة ، فجعلها حمى له ، لا يحق لأحد الرعي بها ، إلا باذن منه . فأزعج عمله هذا من خضع لحكمه ، فكانت عاقبته القتل .

والحلم عند العرب من أهم الصفات التي تؤهـل الإنسان لحكم الناس . وهو عندهم الأناة والعقل ، وقيل ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[1] . ومعالجة الأمور بهدوء وضبط أعصاب . وهو أحزم سياسة تلائم طبع الحكم . وقد عدّوه من خلال الحكماء .

وممن عرف واشتهر أكثر من غيره بالحلم : (الأحنف بن قيس) . حتى ضربت العرب به المثل . فقالت : هو أحلم من الأحنف . وقد نسب أهل الأخبار

---

١ تاج العروس (٢٥٦/٨) ، (حلم) .

له حكماً كثيرة وأمثالاً ، هي من الأمثال التي ينسبونها في العادة الى الحكماء[1] . وذكروا من أمثلة حلمه انه كان قاعداً يوماً بفناء داره محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه ، حتى أتي بمكتوف ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ، فما قطع كلامه حتى انتهى ، ثم كلم ابن أخيه وأنبه وعفى عنه ، ثم قال لابن آخر له : وار أخاك وحلّ كتاف ابن عمك وسق الى أمك مائة ناقة دية ابنهـا فإنها غريبة . الى قَصص آخر من هذا القبيل[2] .

النسب :

النسب هو جرثومة العصبية وأساسها ولهذا حرص العربي على حفظ نسبه ، ولا يزال يحرص عليه ، فيروي لك شجرة نسبه حفظاً ويرفعها الى جملة أجداد .

وقد وجد السياح أعراباً سردوا لهم نسبهم سرداً من غير كتاب مكتوب الى عشرات من الأجداد ، وقد تأكدوا بعد فحوص واختبارات ان ما قيل لهم وسرد عليهم كان صحيحاً في الغالب .

واما أهل المدر ، فإن حرصهم على حفظ نسبهم ، وإنْ لم يكن حرص أهل الوبر ، غير ان فيهم من يحفظ شجرة نسبه ، وفيهم من يحتفظ بها مكتوبة ، وقد شهد على صحتها جماعـة من النسّابين . وفي جملة من يعتني بنسبه اعتناءً كبيراً ، ويأبى الزواج من غير الأسر الكفوءة له ، السادة المتمون الى الرسول ، من ذوي الجاه والحسب والنسب ، والأشراف السادات من أهل الحضر والوبر .

وحفظ النسب هذا هو استمرار لما كان عليه الجاهليون من حرص على حفظ أنسابهم . واذا كُنّا لا نملك اليوم جرائـد جاهلية في النسب ، فإن في بعض الكتابات الجاهلية تأييداً لما نقول . فبين أيدينا في هذا اليوم كتابات جاهلية ذكرت أسماء جملة أجداد لأشخاص دوّنوا أسماءهم في تلك الكتابات . وقد دوّن على شاهد قبر (معنو) (معن) ، اسم أبيه وجدّين من أجداده[3] ، كما عثر على

١ الفاخر (٢٤٢) ، الثعالبي ، ثمار (٤، ٨٥، ٩٢) .
٢ نهاية الأرب (٦/ ٥٠ وما بعدها) .
٣ F. Altheim und R Stiehl, Die Araber. I, S., 280

أسماء عشرة أجداد في بعض الكتابات الصفوية[1] . وهنالك امثلة أخرى من هـذا القبيل ، تثبت عناية العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها . وهي من أهم المزايا التي حافظ عليها العرب الى هذا اليوم .

ويبدأ النسب بالأب في الغالب ، وبـ (الأم) في الأقـل في حالات تتغلب فيها شهرة الأم على شهرة الأب ، ويكون (البيت) إذنْ جرثومـة النسب . وحين ينسب إنسان يقول انـه : (ابن فـلان) . ويشمل نسب البيت الأب والأولاد والبنات والزوجة أو الزوجات ، وهم أكثر الناس التصاقاً بالأب . وقد يقال انه من (بيت فلان) تعبيراً عن الانتساب الى رئيس ذلك البيت . وقـد عرف بعض علماء اللغة النسب : انه القرابـة ، أو هو في الآباء خاصة ، وان النسب ان تذكر الرجل فتقول : هو فلان ابن فلان ، وذكر انـه يكون من قبل الأم والأب[2] .

والبيت هو بيت أب . ولما كان المجتمع مجتمع بيوت ، صار النظام فيه نظاماً أبوياً . السلطة العليا فيه للأب ، اليه يُنتسب وهو المسؤول قانونـاً عن العائلة . يتساوى في ذلك مجتمع الحضر ومجتمع أهل الوبر .

ويذكر أهل الأخبار ان العرب تنسب ولد المرأة الى زوجها الذي يخلف عليها بعد أبيهم . وذلك عنى حسان بن ثابت بقوله :

ضربوا عليّاً يوم بدر ضربـة دانت لوقعتها جميـع نزار

أراد بني عليّ هؤلاء من كنانة . وهم بنو عبد مناة . وانما قيل لهم بنو عليّ عزوة الى عليّ بن مسعود الأزدي . وهو أخو عبد مناة لأمه ، فخلف على أم ولد عبد مناة . وهم : بكر وعامر ومرة وامهم : هند بنت بكر بن وائـل التزارية فرباهم في حجره فنسبوا اليه[3] .

واذا توفي والد وله مولود في بطن زوجته ، أو كان طفلاً رضيعاً وكان له

١ Littmann, Thamud und Safa, 1940. S, 98. Inschriften. 4, 5, S., 121. Die Araber, I. S, 280.

٢ تاج العروس (٤/٢٦٠ وما بعدها) (طبعة الكويت) ، (ن س ب) .

٣ تاج العروس (١٠/٢٥٣) ، (علو) .

أعمام ، تركه أعمامه عند أمه حتى يكبر ، ثم يأخذه أعمامه . وقد تأتي أمه معه . ولكن العادة ان الأم تبعُ أهلها أي عشيرتها ، فاذا توفي زوجها وهي من عشيرة أخرى ، تركت عشيرته لتعود الى عشيرتها ، فاذا كبر المولود خُيّر بين البقاء مع أمه أو الالتحاق بأعمامه ، أي بعشيرة والده . والأغلب ان يختار الولد عشيرة الوالد ، لأن نسب الولد من نسب والده . فيلتحق المولود بعشيرة الأب . وتقدّم عشيرته على عشيرة الأم . إذْ يشعر ان عشيرة أمه وان كانت قريبة منه ، إلا ان قربه منها ليس كقربه من عشيرة والده ، وقد يعبر باختياره عشيرة أمه عشيرة له . ولدينا أمثلة تشير الى تعيير الأولاد أولاداً آخرين ، لالتحاقهم بعشيرة أمهم وتركهم عشيرة والدهم ، كالذي كان ، من أمر عبد المطلب يوم كان طفلاً ، إذْ عيره أطفال عشيرة أمه بلجوئه الى عشيرتهم ، إذْ لا عشيرة له . ولو كانت له عشيرة للحق بها . مما حمله على ترك يثرب والرجوع الى أعمامه بمكة . فالعم في نظرهم بمنزلة الوالد . وهو أقرب الناس اليه ، وهو وريثه في العصبات . . وبهذه الحجة احتج العباسيون على العلويين في تقدمهم عليهم بحق الخلافة .

ومن هنا نجد العرب يوصون بأولاد العم خيراً ، والا يتهاتروا معهم ولا يختلفوا مهما وقع بينهم من خلاف . وفي هذا المعنى يقول أبو الطمحان :

إذا كان في صدر ابن عمك إحنة فلا تستثرها سوف يبدو دفينها [1]

وللخؤولة مكانة كبيرة في العصبة عند العرب . قد تقوى على العمومة ، فاذا هلك انسان ، وكان إخوته على خلاف مع زوجته أو كان حالهم ضعيفاً ، قامت الخؤولة مقام العمومة في رعاية الأولاد وحمايتهم ومدّهم بالعصبية . بل قد نجد ان عصبية الخؤولة أقوى عند العرب في الغالب من عصبية العمومة . وفي تأريخ الجاهلية والإسلام أمثلة كثيرة على ذلك .

ومن حسن حظ الإنسان في الجاهلية ان يكون له أعمام وأخوال كثيرون ، خاصة اذا كانوا أصحاب جاه وسيادة . لأنه سيعتز بهم ، ويفتخر بكثرتهم . وكان الجاهليون يقولون : رجل معم ورجل مخول وأخول ، اذا كان له أعمام

١ أمالي المرتضى (١/٢٥٩) .

وأخوال . ويقال: كريم الأعمام والأخوال ، على سبيل المدح والتقدير [1] ومنه قول امرىء القيس : بجيدٍ معمٍ في العشيرة مخول . وقول الشاعر :

تروح بالعشيّ بكـــل خرق كريم الأعمين وكل خـــال [2]

والنسب ، نسب أهل ، ويقوم على الدم القريب ، ونسب قبيلة ، ويقوم على العصبية للدم الأبعد . دم جد القبيلة يجري في عروق المنتسبين اليه .

والعرب من حيث النسب صرحاء . وحلفاء وجيران وموالي وشركاء يستلحقون بالنسب . أما الصريح ، فهو المحض من كل شيء ، والخالص النسب . ويقال جاء بنو فلان صريحة اذا لم يخالطهم غيرهم [3] .

والنسب إذن ، نسب آباء ، وهو نسب الصرحاء الخلص من العرب المنحدرين من صلب جد القبيلة ، على حد تعبير أهل الأنساب ، ونسب حلف أو جوار ، أي نسب استلحاق . والغالب ان يتحول نسب الاستلحاق الى نسب صريح ، حين تطول اقامة الدخيل بين من دخل بينهم : فينسى أصله ، ويأخذ أحفاده نسب من دخل جدهم فيهم . ويشمل ذلك نسب القبائل أيضاً . ونجد في كتب أهل الأخبار أمثلة كثيرة من أمثلة تحول الأنساب ، حيث نجدهـــا تنص على دخول نسب فلان في نسب بني فلان ، ونسب قبيلة في نسب قبيلة أخرى .

ويقال للقوم الذين ينتسبون الى من ليسوا منهم (الدخل) . والدخيـــل هو الرجل الغريب الذي ينتسب الى قوم ليس هو بواحد منهـــم . وذكر أيضاً ان (الدخل) بمعنى الخاصة ، وأيضاً الحشوة الذين يدخلون في قوم وليسوا منهم ، أي في المعنى المتقدم [4] .

وفي كتب أهل الأخبار أمثلة عديدة على تنقل الأنساب واثبات نسب قوم في قوم ليسوا منهـــم لغاية ومأرب . وقـــع ذلك في الجاهلية وفي الإســـلام . قال (الكندي) : (كان أبو رجب الخولاني وفلان وفلان يتحرشون أهل الحرس

١ تاج العروس (٣١٢/٧) ، (خول) .
٢ تاج العروس (٤٠٩/٨ ح ، (عمّ) .
٣ اللسان (٥٠٩/٢) ، (صرح) ، بلوغ الأرب (١٩١/٣ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٣٢٠/٧ وما بعدها) ، (دخل) .

ويؤذونهم ، فشى أهـل الحرس الى زكريا بن يحيى كاتب العمري ، فقالوا له حتى متى نؤذى ويطعَن في أنسابنا . فأشار عليهم زكريا بجمع مال يدفعونـه الى العمري ليسجل لهم سجلاً باثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، فلما صار المال الى العمري لم يجسر على ان يسجل لهم ، وقال : ارفعوا الى الرشيد في ذلك ، فخرج وفد منهم الى العراق وانفق مالاً عظيماً هناك ، وادعى الوفد ان المفضل بن فضالة قد كان حكم لهم باثبات أنسابهم وانهم بنو خوتكة بن الحاف ابن قضاعة ، ثم عاد الوفد بكتاب محمد الأمين الى العمري بالتسجيل لهم ، فدعاهم العمري الى اقامة البينة عنده على أنسابهم فأتوا بأهل الجوف الشرقي وأهل الشرقية . وقدم جماعة من بادية الشأم ، فشهدوا انهم عرب فسجل لهم العمري . ثم تجـدد نظر القضية فيما بعد وفسخ حكم القاضي العمري . ورد أهل الحرس الى أصلهـم القبطى)[1] .

وأشار أهل الأخبار الى قبائل كانت تتنقل من قوم الى قوم ، فتنتمي اليهم ، قالوا لها : (النواقل) . والنواقل من انتقـل من قبيلة الى قبيلة أخرى فانتمى اليها[2] . والتنقل دليل على ان النسب لم يكن من الصرامة والشدة على نحو ما يصوره لنا النسابون المتأخرون .

وفي الذي يذكره علماء النسب عن أنساب القبائل ، أمور لا يمكن لنا قبولها ، لا سيما ما يتعلق منها بالتعصب القبلي وبسرد الأنساب وتشجيرهـا وفي تفرعها . وأنساب القبائل موضوع لم يبحث بعد بحثاً علمياً ، وهو يحتاج الى تفرغ وتتبـع والى مقارنة ما جاء عند العرب فيه بما جاء عند غيرهم من الساميين وغيرهـم عنه . فقد لعبت الأنساب دوراً خطيراً عند البشرية ، لانها كانت الحماية والوقاية للإنسان ، قبل ان تتولد الحكومات الكبيرة التي رعت الأمن وبسطت سلطانها ، وبذلك خففت من غلواء النسب والانتساب .

الاستلحاق :

والاستلحاق ، هو ان يستلحق انسان شخصاً فيلحقه بنسبه ، ويجعله في حمايته

١ كتاب قضاة مصر (٣٩٧) ، العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٨٨) .
٢ تاج العروس (٨/١٤٣) ، (نقل) .

ورعايته ، أي في عصبيته . وقد يكون الرجل صريحاً معروف النسب ، وقد يكون أسيراً أو مولى أو عبداً ، فيسميه مولاه وينسبه اليه .

ومن هذا القبيل ما كان يفعله أهل الجاهلية من استلحاق أبناء الإماء البغايا بهم . وذلك انه كان لأهل الجاهلية إماء بغايا وكان سادتهن يلمّون بهن ، فاذا جاءت احداهن بولد ربما ادعاه السيد والزاني ، فيقع خلاف بينهما على الولد . وقد وقع مثل هذا الخلاف في أيام الرسول ، في أول زمان الشريعة ، فقضى الرسول بالحاقه بالسيد ، لأن الأمة فراش كالحرة ، فان مات السيد ولم يستلحقه ثم استلحقه ورثته بعده لحق بأبيه . وفي ورثته خلاف [1] .

الدعيّ :

ويقال للمستلحق (الدعيّ) . والدعيّ المنسوب الى غير أبيه . و (الدعوة) [2] في النسب ان ينتسب الانسان الى غير أبيه وعشيرته وقد كانوا يفعلونه فنهي عنه وجعل الولد للفراش . ومن هذا القبيل المتبنّى الذي تبناه رجل فدعاه ابنه ونسبه الى غيره ، وكان النبي ، تبنى (زيد بن حارثة) ، ثم الحقه بنسبه ، بعد ان نزل الوحي عليه (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) [3] . وقال : (ما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم) [4] .

ويكون حكم الدعيّ من الناحية القانونية في حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند الجاهليين ، لذلك كان الجاهليون يورثونه كما يورثون الأبناء [5] .

ويقال للدعيّ ينتمي الى قوم : منوط مذبذب ، سمّي مذبذباً لأنه لا يدري الى من ينتمي [6] . وقد يكون الرجل دعي أدعياء ، فيكون هو دعيّاً في رهطه ،

---

١ اللسان (١٠/٣٢٨) ، (صادر) ، (لحق) ، تاج العروس (٧/٦٠) ، (لحق) .
٢ الدعوة بكسر الدال .
٣ سورة الأحزاب ، الرقم ٣٣ الآية ٥ ، اللسان (١٤/٢٦١) .
٤ سورة الأحزاب ، الرقم ٣٣ ، الآية ٤ ، اللسان (١٤/٢٦١) ، (صادر) ، (دعا) .
٥ الأغاني (١٧/٩٤) .
٦ اللسان (٧/٤٢٠) ، (صادر) ، (نوط) .

ورهطه دعي في قبيلة مثل (ابن هرمة) ، فقد كان دعيّاً في الخلج وكان الخلج دعيّاً في قريش[1] . ويقال للدعي (ملصقا) ، والملصق ، هو المقيم في الحي وليس منهم بنسب[2] .

وقد ورد في حديث (علي بن الحسين) : المستلاط لا يرث ، ويُدعى له ويدعى به ، المستلاط المستلحق في النسب ، ويدعى له ، أي ينسب اليه؛ فيقال : فلان بن فلان ، ويدعى به أي يكنى ، فيقال : هو أبو فلان ، وهو مع ذلك لا يرث لأنه ليس بولد حقيقي[3] . ومن ذلك قولهم : (لاط القاضي فلانا بفلان ألحقه به) ، وورد ان أناساً في الجاهلية كانوا يليطون الأولاد بآبائهم ، أي يلحقونهم[4] . والظاهر ان استلحاق الأبناء بالآباء ، كان معروفاً بين الجاهليين بسبب الاتصال بالإماء وببعض الأعراف الأخرى التي حرمت في الإسلام .

ويقال للدعيّ : المخضرم . وقيل هو من لا يُعرف أبوه أو أبواه ورجل مخضرم أسود وأبوه أبيض ، أو هو من ولدته السراري . وذلك ذم في الانسان[5] .

ويقال رجل (خلط ملط) ، بمعنى : مختلط النسب . وذكر ان الملط الذي لا يعرف له نسب ولا أب . وأما خلط ، فإما بمعنى المختلط النسب ، وإما بمعنى ولد الزنا . والخليط المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك . ومنه الحديث : الشريك أولى من الخليط ، والخليط أولى من الجار . والشريك المشارك في الشيوع . والخليط القومُ الذين أمرهم واحد[6] .

و (الأهل) أهل الرجال وأهل الدار ، وأهل الرجل أخص الناس به . وأهل الدار أهل البيت . و (آل الرجل) أهله . ويقال في النسب : هو من آل فلان[7] .

١ الأغاني (٣/٧٦) .
٢ تاج العروس (٧/٦١) ، (لزق) ، (ألصق) .
٣ اللسان (١٤/٢٦٢) ، (دعا) .
٤ تاج العروس (٥/٢١٨) ، (لاط) ، اللسان (٧/٣٩٥) ، (لوط) .
٥ تاج العروس (٨/٢٨١) ، (الخضرم) .
٦ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) ، (٥/٢٢٦) ، (ملط) .
٧ اللسان (١١/٢٨ وما بعدها) ، (صادر) (أهل) .

وينتهي النسب بجد القبيلة الأكبر . فلكلّ قبيلة جدّ أكبر تنتمي اليه ، وتتسمى به ، وله ابن ينتسب اليه أو أبنـــاء ينتسبون اليهم ، ويكون هـــذا الجدّ محور (النسب) و (العصبية) للقبيلة . ونجد هذا النوع من النسب معروفاً عند غير العرب أيضاً .. عند العبرانيين والآراميين وعند الإغريق والرومان مثلاً .

الجـــوار :

وللجوار صلة كبـــيرة بـ (النسب) وبالعصبية عند العرب ، فقـــد يتوثق الجوار ، وتتقوى أواصره فيصير نسباً ، فيدخل عندئذ نسب (المستجير) بنسب (المجير) ، ويصير وكأنه نسب واحد ، هو نسب (المجير) . وقد اندمجت بـ (الجوار) أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة ، أو القبائل التي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها ، فتضطر الى طلب (جوار) قبيلة أكبر منها ، لتدافع عنها ، ولتكون بذلك قوة رادعة تحمي حياتها وتحافظ على نفسها وما لها بهذا الجوار .

وهو من السنن التي حافظ عليهـــا الجاهليون ، واعتدّوها كالقوانين . فاذا استجار شخص بآخر ، أو استجارت قبيلة بأخرى ، اكتسب هذا الجواز صيغة قانونيـــة ، ووجب على المجير المحافظـــة على حق الجوار . والا ، نزلت السبة بالمجير ، وازدراه الناس .

ويكتسب الجوار حكمه بإعلان الطرفين قبولهم له على الملأ ، في أماكن الاجتماع في الغالب ، في مثل المواسم من حج أو سوق . فاذا أعلن ذلك ، وعلم الناس الخبر ، صار المجار في ذمة المجير ، وترتب على المجير ان يكون مسؤولاً عن كل ما يقع على المجير وما يصدر منه .

وقد ورد في القرآن الكريم ، (والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل) [1] . والجار ذو القربى هو نسيبك النازل معك في الحواء ، ويكون نازلاً في بلدة وأنت في أخرى ، فله حرمة جوار القرابة . والجار الجنب ان لا يكون له مناسب فيجيء اليه ويسأله ان يجيره ، أي يمنعـــه فينزل معه ،

١ النساء ، الآية ٣٦ .

فهذا الجار الجنب له حرمة نزوله في جواره ومنعته وركونه الى أمانه وعهـــده . لأنه جاوره وان كان نسبه في قوم آخرين ولا قرابة له به .

وكان سيّد العشيرة إذا أجـــار عليها إنساناً لم يخفروه[1] . وإذا دخـــل قبته أو خباءه أو دار حول خيمته ، ونادى بالجوار والأمان صار آمناً . وقد وجب على صاحب القبـــة أو الخبـــاء أو الخيمة حمايته ، حتى وان كان من ســـائر أبناء القبيلة .

والجار والمجير والمعيذ واحد . ومن عاذ بشخص استجار به[2] . ومن هـــذا القبيل استجارة أهل الجاهلية بالجنّ . (قيل : إنّ أهل الجاهلية كانوا اذا نزلت رفقة منهم في وادٍ ، قالت : نعوذ بعزيز هذا الوادي من مردة الجن وسفهائهم . أي نلوذ به ونستجير)[3] .

وللجوار حرمة كبيرة عنـد الجاهليين . فإذا استجار شخص بشخص آخر ، وقبل ذلك الشخص ان يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايتـــه ، وحق على المجار الدفاع عن مجيره : والذبّ عنه . وإلا عدّ ناقضاً للعهد ، ناكثـــاً للوعد ، مخالفاً لحق الجوار . وعلى القبائل استجارة من يستجير بها . والدفاع عنه دفاعها عن أبنائها . ويقال للذي يستجير بك (جار) . والجار الذي أجرتـــه من ان يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك . وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه[4] .

وقد أوصوا بالجار خيراً ، ورجوا من الجار ان يكون كذلك قدوة حسنة في جواره ، فلا يسيء الى جاره او الى جيرانه ، وعلى الجار ان يغض نظره عن عيوب جاره ، وأن يكون يقظاً في حفظ حقوق جاره ، فطناً في الدفاع عنه .

١ اللسان (٤/١٥٥) ، (جور) .
٢ اللسان (٤/١٥٥) ، (جور) .
٣ اللسان (٣/٥٠٠) ، (عوذ) .
٤ اللسان (٤/١٥٤ وما بعدها) ، (جور)

ليس له أن يتملص من حقوق الجوار اذا استحقت ووجبت ، لأن للجار حقاً عليك . [1]

وكان يقال في الجاهلية للرجل اذا استجار بيثرب : قوقل في هذا الجبل ثم قد أمنت . فاذا فعل أحد ذلك ، وجب على اهل يثرب قبول جواره والدفاع عنه . وذكر ان (قوقل) رجل من الخزرج ، اسمه (غنم بن عوف بن عمرو ابن عوف بن الخزرج) ، سمّي به (لأنه كان اذا اتاه انسان يستجير به او بيثرب قال له : قوقل في هذا الجبل ، وقد أمنت . أي ارتق) . وقيل : (لانهم كانوا اذا أجاروا أحداً أعطوه سهماً . وقالوا : قوقل به حيث شئت . أي سر به حيث شئت) . وذكروا ايضاً أن (القوقل) اسم أبي بطن من الانصار ، اسمه تعلبة بن دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن الخزرج . وقالوا : هو النعمان بن مالك بن ثعلبة . [2]

والغاية من الجوار طلب الحماية والمحافظة على النفس والأهل والمال ، لذلك لا يطلبه في العادة الا المحتاج اليه . ولا يشترط في الجوار نزول الجار قرب المجير ، أو في جواره أي أن يكون بيته ملتصقاً ببيته . فقد يكون على البعد كذلك . لأن الجوار حماية ورعاية ، وتكون الحماية حيث تصل سلطة المجير ، وتراعى فيه حرمته وذمته . ويكون في امكانه الدفاع عن جاره . ولهذا كان على الجار أن يعرف حدود (الجوار) ، وقد يعلقانه بأجل احترازاً وتحفظاً من الجوار المطلق ، الذي لا يعلق بزمن وانما يكون عاماً .

ولا يجير أحد انساناً الا اذا أحس ان في امكانه اداء امانة الجوار . والا عرض نفسه وأهله وقبيلته للأذى والسبّة ، ان قبل شخصٌ جوار أحد ، وهو في وضع لا يمكنه من الوفاء بحقوق الجوار . ولا يطلب رجل مجاورة رجل آخر الا اذا شعر أن من سيستجير به هو كفؤ لأن يجيره . والا فما الفائدة من الاستجارة برجل ضعيف قد يكون هو نفسه في حاجة الى الاستجارة بأحد .

ولا يشترط في الجوار أن يكون جوار أحياء . فقد يستجير انسان بقبر ، فيصير

١ قال قيس بن عاصم :

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن

المرزوقي ، شرح الحماسة (٤/٥٨٤) .

٢ المعارف (ص ٥٠) ، تاج العروس (٨/٨٤) ، (القوقل) .

في جواره وفي حرمة ذلك القبر . وعلى أصحاب ذلك القبر الذبّ عن هذا الجار والدفاع عنه . ومن هذا القبيل استجارة الناس بقبر (عامر بن الطفيل) . فقد ذكر أن قومه من (بني عامر) ، وضعوا حول قبره أنصاباً على مسافة منه ، اذا اجتازها اللاجيء ودخل (الحرم) المحيط بالقبر ، صار آمناً على ماله ونفسه ، لا يخشى خشية أحد ، يريد انزال سوء به . وقد منعوا دخول حيوان اليه أو مرور راكب به ، احتراماً لحرمة صاحب هذا القبر . [1] وكالذي كان من أمر قبر (تميم بن مرّ) جدّ قبيلة تميم في عرف النسابين .

وقد يستجير الانسان بمعبد أو بأي موضع مقدس ، فيكون في جوار وحرمة ذلك المكان . وعلى اصحابه اداء حقوق الجوار . ومن هذا القبيل جوار مكة . فمن دخل حرم (البيت) صار في جواره ، آمناً مطمئناً لا يجوز الاعتداء عليه ولا اخافته ، لانه في حرمة (البيت) وعلى قريش الذبّ عنه .

وقد كان لآل (محلم بن ذهل) قبة بوادي (عوف) عرفت بـ (قبة المعاذة) ، من لجأ اليها أعاذوه . و (آل عوف) من اشرافهم في الجاهلية ومن رجالهم (عوف) الذي يضرب به المثل : لا حرّ بوادي عوف . [2] والعوذ الالتجاء . ولهذا عرفت بتلك التسمية . وهو (عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان) . وقد ضرب به المثل في الوفاء . فورد : (هو أوفى من عوف) . وذلك لأن عمرو ابن هند طلب منه مروان القرظ . وكان قد أجاره فمنعه عوف وأبى أن يسلمه ، فقال عمرو : لا حرّ بوادي عوف . أي أنه يقهر من حل بواديه وكل من فيه كالعبيد له لطاعتهم إيّاه . وهو من أمثال العرب في الرجل العزيز المنيع الذي يعز به الذليل ويذل به العزيز . وقيل ان كل من صار في ناحيته خضع له . أو قيل ذلك لأنه كان يقتل الأسارى . [3] ولما توفي (عوف) دفن بواديه، وأقاموا قبة على قبره صارت ملاذاً لمن يطلب الجوار .

ومن طرق الجوار ، أن يأتي رجل الى رجل ليستجير به فلا يجده ، فيعقد

---

١ الاغاني (١٨٤/٢) ، (١٤٩/١٥) .
٢ الاشتقاق (٢١٥) .
٣ تاج العروس (٢٠٦/٦) ، (نعوف) .

طرف ثوبه الى طنب البيت ، فاذا فعل ذلك عدّ جاراً ، ووجب على صاحب البيت أن يجيره . [1]

والجوار جواران : جوار جماعـــة كجوار بيت أو فخذ أو بطن أو ظهر أو عشيرة أو قبيلة ، وجوار أفراد . وللجوارين حرمة وقدسية ليس أحدهما دون الآخر في الحرمة والوفاء .

واذا نزل انسان على انسان آخر جاراً ، فان من المتعارف عليه أن تكون حرمة جواره ثلاثة أيام ، : (وكانت خفرة الجـــار ثلاثاً) [2] فاذا انتهت ، انتهت مدة الجوار . وعلى الجار الارتحال ، الا اذا جدد (المجير) جواره له ، وطلب منه البقاء في جواره . فيكون عندئذ لهذا الجوار حكم آخر ، اذ يبقى الجوار قائماً ما دام عقده باقياً . وقد استفاد من حق الجوار الغرباء والمسافرون ، والمحتاجون وأمثالهم . فقد أمنوا على راحتهم ورزقهم وهم في محيط صعب ، كما أمنوا على حيـــاتهم ، حتى أن المجير ليغفر لجاره ما قد يبدر منه من سوء بسبب حكم الجوار . قال مجير لجاره : (لولا أنك جار لقتلناك) [3] . ويشمل هذا الجوار المسافر والضيف .

ومن عاداتهم في الجوار ، أن أحدهم اذا خاف ، فورد على من يريد الاستجارة به ، نكس رمحه ، فاذا عرفه المجير ، رفع رمحه . فيصير في جواره . فلما هرب (الحارث بن ظالم المرّي) من ملك الحيرة ، وأخذ يتنقل بين القبائل حتى وصل عكاظ وبها (عبد الله بن جدعان) ، نكس رمحه أمام مضرب (ابن جدعان) ، ثم رفعه حين عرفوه ، وأمن . وأقام بمكة ، حتى أتاه أمان ملك الحيرة . [4]

وقد يحدد الجوار بحـــدوده . كأن يذكر من يطلب الاستجارة لمن يريد ان يستجير به ، ان استجارته به من قبيلة كذا أو من القبائل الفلانية أو من الشخص

---

١ الأغاني (٢/١٨٤) .
٢ الفاخر (٢٢٠) .
٣ الفاخر (٢٢٠) .
٤ البلاذري (١/٤٢ وما بعدها) .

الفلاني . فاذا قبل المجير ذلك حدد جواره بما حدد في عقد الجوار . فاذا اعتدت على المستجير قبيلة أخرى لم تذكر في نص الجـوار ، فلا ذمة للمستجير على المجير ، وليس من حقه طلب مساعدته له . كما قد يحدد الجوار بزمن ، كاقامة شخص في مكان ، أو ايصاله من موضع الى موضع ، أو تعيين أمد له .

والخفارة الخفرة : الأمان ، والخفير : المجير ، والخفارة : الذمة . ويقال : خفرت الرجل : أجرته وحفظته ، وتخفرت به اذا استجرت به . وأخفرت الرجل اذا نقضت عهده وذمامه . [1] بأن يعلن ذلك ليقف عليه الناس ، والا بقيت التبعة في عنق الخفير .

وعلى من أعطى خفارته لأحد ، الوفاء بما أعطى ، والوفاء بما ألزم نفسه به عليه ، والا عد ناكثاً للعهد حقيراً . [2]

المؤاخاة :

وتكون المؤاخاة بين الأفراد كما تكون بين الجماعات ، كالعشائر والقبـائل . وهي تدعو الى العناصر والمؤازرة والمساعدة . وتؤدي الى الموارثة . وخير مثل على المؤاخاة ، ما فعله الرسول يوم مقدمه المدينة من مؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين لتوحيد الكلمة وليساعد بعضهم بعضاً . [3]

ولا يشترط في المؤاخاة أن تكون بين أعراب وأعراب ، أو بين حضر وحضر ، اذ يجوز أن تعقد ايضاً بين العرب والأعراب ، اي بين الحضر والبدو . لأن المؤاخاة عقد ، والعقد يقع بين كل الناس ، كما قد تقع بين عربـي وأعجمي ، فقد آخى الرسول بين سلمان الفارسي وأبـي الدرداء .

١ اللسان (٤/٢٥٣ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/١٨٦) ، (خفر) .
٣ تاج العروس (١٠/١١) ، (أخا) .

الموالي :

والمولى : الولي والعصبة والحليف وابن العم والعم والأخ والابن وابن الأخت والعصبات كلهم والجار والشريك[1] . فللفظة إذنْ معان عديدة ، أهمهـا بالنسبة لنا ، ان المولى : العبد ، أي المملوك الذي يمنّ عليه صاحبه ، بأن يفك رقبته ، فيعتقه ، ويصير المملوك بذلك مولى لعاتقه . وسوف نرى ان الموالي أنواع . وهم الذين نبحث عنهم في هذا المكان .

و (الموالي : العصبة . هم كانوا في الجاهلية الموالي ، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم اسماً ، فقال الله تبارك وتعالى : فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم . فسمّوا الموالي .. والمولى اليوم موليان : مولى يرث ويورث ، فهؤلاء ذوو الأرحام ، ومولى يورث ولا يرث . فهؤلاء العتاقة)[2] .

والعرب تسمّي ابن العم المولى ، ومنه قول الشاعر :

ومولى رمينا حوله وهو مدغـل بأعراضنا والمندبـات سروع

يعني بذلك وابن عمّ رمينا حوله . ومنه قول الفضل بن العباس :

مهلاً بني عَمّنا ، مهلاً موالينا لا تظهرنّ لنا ما كان مدفونا[3]

والموالي أنواع . موالي عتق وموالي عتاقة ، وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبته بعتقه . كأن يشتري رجل مملوكاً فيشتريه فيعتقه[4] . وفي جملة مـا كان يفعله الجاهليون في مقابل فك رقبة المملوك اشتراطهم على المملوك عملَ عملٍ يعيّن له ، فإنْ قام به وأتمه ، اعتقت رقبتـه . ويصير مولى لمعتقه إنْ شاء ، وله الخيار في ان يختار غير سيده مولى له ، إن اشترط ذلك على سيده ، أو اشترط

١ اللسان (١٥/٤٠٨ وما بعدها) ، (صادر) ، (ولي) . قال الشاعر :
هم المـولى وإن جنفـوا علينـا وأنـا من لفـائهم لـرور
يعني بني العم . وقال اللهبي يخاطب بني أمية :
مهـلا بنـي عمنا مهـلا موالينـا أمشوا رويـدا كما كنتم تكونونا
تاج العروس (١٠/٣٩٩) ، (ولي) .
٢ تفسير الطبري (٥/٣٣) .
٣ تفسير الطبري (٥/٣٢) .
٤ اللسان (١٠/٢٤٣) ، (عتق) .

سيده عليه ذلك الشرط . وقد يقع الاختيار على ذلك بعد وقوع العتق .

ومن الموالي : موالي مكاتبة (موالي المكاتبة) وذلك ، بأن يشترط في عقد البيع ، ان العبد يكاتب على نفسه بثمنه ، فإذا سعى وأداه عتق . وذكر أيضاً ان المكاتبة ، ان يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجّماً ، فاذا أداه صار حرّاً . والعبد مكاتب . وقيل : المكاتبة : ان يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجّمه عليه ، ويكتب عليه انه اذا أدى نجومه في كل نجم كذا وكذا ، فهو حرّ ، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه ، فقد عتق ، وولاؤه لمولاه الذي كاتبه . وذلك ان مولاه سوغه كسبه الذي هو في الأصل لمولاه ، فالسيد مكاتب ، والعبد مكاتب اذا عقد عليه ما فارقه عليه من أداء المال . سميت مكاتبة لما يكتب للعبد عليه على السيد من العتق اذا أدى ما فورق عليه ، ولما يكتب للسيد على العبد من النجوم التي يؤديها في محلها ، وان له تعجيزه اذا عجز عن أداء نجم يحلّ عليه [1] .

والأصل في ولاء المكاتبة ، ان من أعتق عبداً كان ولاؤه له ، فينسب اليه . واذا مات كان هو وارثه . وقد لا يتحول الولاء للولي ، اذا اشترطوا أولاً ألا يكون ولاؤه لمعتقه ، بل لمن يؤدي ثمن المكاتبة مثلاً . وقد يعتق المملوك ولا يكون لأحد ولاء عليه . وتكون العتاقة عندئذ (سائبة) . و (السائبة) : العبد يعتق على ان لا ولاء له ، أي عليه . ويحق عندئذ ان يضع ماله حيث يشاء [2] .

ومن أسباب العتاقة : التدبير . وهو ان يعلق المالك عتق مملوكه على شرط ، هو بعد وفاته . كأن يقول له : أنت حرّ بعد موتي . فلا يرثه أهله [3] .

واما مولى العقد ، ويقال له مولى حلف ومولى اصطناع ، فيكون بانتماء رجل الى رجل آخر بعقد ، أو قبيلة الى قبيلة أخرى بحلف . وذلك بأن يتعاقد ضعيف مع قوي على ان يساعده ويعاضده ، ويقوم في مقابل ذلك بأداء ما اتفق عليه من شروط . وينتسب المولى عندئذ الى سيده ، أي مولاه الذي قبل ولاءه . ومن هذا القبيل يهود يثرب ، فقد كانوا في ولاية الأوس والخزرج ، لجأ كل بطن

١ اللسان (١/٧٠٠) ، (كتب) .
٢ تاج العروس (١/٣٠٥) .
٣ تاج العروس (٣/٢٠٠) ، (دبر) .

منهم الى بطن من الأوس أو الخزرج يتعززون بهم، وصاروا موالي لهم. اذا وقع عليهم ضيم لجأوا الى من انتموا اليه بالولاء للدفاع عنه. ولما ظهر الإسلام كان من دخل في ولاء (عبد الله بن أبي) ، ومنهم من دخل في ولاء (سعد بن معاذ) ومنهم من كان في ولاء (عبادة بن الصامت) . وكان عليهم في مقابل ذلك ، العون والنصرة لمن دخلوا في ولائه أو ولائهم ، والدفاع عنهم ، وان يكونوا بمثابة العون لهم .

وكان من موالي الحلف ، قوم من اليهود والنصارى والمجوس . ولما ظهر الإسلام ، أبطل عن تولي أهل الكتاب [1] . إذ جعلهم في ذمة المسلمين. ويدخل في هذا الولاء ولاء قبائل وعشائر صغيرة لقبائل أكبر منها . وذلك في سبيل الحصول على حمايتها لها ودفاعها عنها . فيتوجب عليها أداء ما شرط عليها من شروط عند طلبها الولاء ، من العصبية والعقل وما شاكل ذلك من حقوق .

أما مولى الرحم ، فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها [2] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الموالي ثلاثة : مولى اليمين المحالف، ومولى الدار المجاور ، ومولى النسب ابن العم والقرابة . وقد ذكرت هذه الأنواع في هذا البيت :

نبئت حيّاً على نعمان أفرادهم مولى اليمين ومولى الدار والنسب [3]

وقد ذكر (الجاحظ) (ان الموالي أقرب الى العرب في كثير من المعاني ؟ لأنهم عرب في المدّعى ، وفي العاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل لقوله : مولى القوم منهم ، ومولى القوم من أنفسهم . والولاء لحمة كلحمة النسب) [4] . ولهذا عدّ الموالي في نسب من دخلوا في ولائه . وتعصبوا وتحزبوا لولاء المولى .

والموالي مهما كانوا : عرباً أم عجماً ، كانوا أقل شأناً في مجتمعهم من

---

١ المائدة ، الآية ٥١ ، تفسير الطبري (٦/١٧٧) ، الألوسي ، تفسير (٦/١٤٠) .
٢ تاريخ التمدن الاسلامي (٤/٣١) .
٣ العمدة (٢/١٩٨) .
٤ مناقب الترك (١/١٢) ، من رسائل الجاحظ ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

الأحرار . إذ نظر اليهم على انهم دون العرب الأحرار في المكانة . ولهذا فقلما زوج الأحرار بناتهم للموالي . حتى ضرب بهم المثل في القلة والذلة ولا سيما اذا كان الانسان مولى موالي . فقيل : (مولى الموالي) ، قيل ذلك في الاسلام أيضاً . ورد في الشعر :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا [1]

وقد بقيت نظرة الازدراء المذكورة حتى في الاسلام . فمع مساواة الاسلام للعرب بغيرهم واتيانه بمقياس جديد في تفضيل الخلق بعضهم على بعض هو مقياس العمل الصالح ، المتجسم في قوله : (أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى) [2] . أو قوله : (الناس في الاسلام سواء ، الناس طف الصاع لآدم وحواء . لا فضل لعربي على عجمي ، ولا عجمي على عربي إلا بتقوى الله) ، (لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم ، فأقول للناس هكذا ولكم هكذا) [3] ، نجد ان العرب بقيت في الاسلام أيضاً تأنف من تزويج بناتها الى الموالي بسبب شرط (الكفاءة) الذي كان سنة من سنن أهل الجاهلية في الزواج : كفاءة النسب والمنزلة والحرفة . واذا تزوج مولى بنتاً عربية ، عُيرت القبيلة به . وقد هجا الشاعر (أبو بجير) (عبد القيس) ، لتزويجهم بناتهم للموالي [4] . وذهب البعض الى قاعدة : (الكفاءة في النسب والدين والصنعة والحرية ، ولا تزوج عربية بأعجمي ولا قرشية بغير قرشي ، ولا هاشمية بغير هاشمي ، ولا عفيفة بفاجر) [5] . وان (قريشاً بعضهم أكفاء لبعض بطن ببطن ، والعرب بعضهم أكفاء لبعض ، قبيلة بقبيلة ، والموالي بعضهم أكفاء لبعض رجل برجل) [6] .

١ الثعالبي ، ثمار (٦٩٠) .
٢ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٥٨) .
٣ اليعقوبي (٢/١٠٠) ، (حجة الوداع) ، وتروى الخطبة بصور مختلفة .
٤ العقد الفريد (٣/٢٣٢) .
٥ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٦٧) ، أبو اسحاق الشيرازي كتاب التنبيه في الفقه على مذهب الامام الشافعي (٩٥) .
٦ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٦٦) .

أما كفاءة النسب ، فيراد بها النسب العربي ، أي ان الرجل لا يزوج بنتاً عربية إلا اذا كان عربياً . وأما المنزلة ، فيراعى فيها الكفاءة في المكانة ، كأن يراعى في اختيار الزوجة ان تكون من عائلة ليست منزلتها دون منزلة الزوج ، وإلا عيّر بزواجه ، وأما الحرفة ، فان يتزوج الرجل بنتاً من بنات حرفته ، فلا يتزوج الرجل ابنة صائغ مثلاً وإلا عيّر ابنها به ، كالذي كان من أمر (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، فقد عيّره الناس بأمه لأنها ابنة صائغ ، ثم لأنها يهودية . وكان هذا العرف صارماً في اليمن ، فحصروا الزواج بأصحاب الحرف على نحو ما سأتحدث عنه في باب الزواج .

ونظراً الى ازدراء العرب لشأن الموالي ، وما كان يجلبه الولاء من ازدراء العرب بعضهم بعضاً لهذا السبب ، بسبب ولاء العتق أو ولاء الموالاة ، فقد أمر الخليفة (عمر) بإبطال الولاء بين العرب ، وجوز بقاءه فيما بين العرب وغير العرب [1] ، فاقتصر الولاء على هذا النوع وحده في الاسلام .

الأحلاف :

وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين . والحلف في اصطلاح علماء اللغة العهدُ بين القوم ، والحلف والمحالفة : المعاهدة ، وأصله اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد ، ثم عُبّر به عن كل يمين . والمحالفة ان يحلف كل للآخر [2] . فمعنى الحلف في الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . وتحالفوا بمعنى تعاهدوا وعقدوا اتفاقاً وعهداً ، وتآخوا على العمل يداً واحدةً ، وقد حالف الرسول بين المهاجرين والأنصار ، أي آخى بينهم [3] .

وفي كلمة الحلف شيء من الدلالة على الشعائر والأيمان والمعاني الدينية ، ولذلك قيل للحلف اليمين ، لأن من عادتهم عند عقد الحلف بسط أيمانهم إذا حلفوا

١ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٧٤) .
٢ المفردات (ص ١٢٨) ، اللسان (٩/٥٣) (بروت) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، المخصص (١٣/١٠٩) ، رو) المعاني (١٦/١٢٥) .
٣ تاج العروس (٦/٧٥) ، اللسان (٩/٥٣) ، الصحاح (١/٥١٢) ، اللسان (١٢/٤٠٣) ، الصحاح (٤/١٣٤٦) ، اساس البلاغة (١/١٩٣) .

وتحالفوا وتعاقـدوا وتبايعوا[1] . وكانوا ينظرون اليها على ان لهـا قداسة خاصة وحرمة ، والحانث بيمينه ينظر اليه بأشد أنواع التحقير والازدراء . ويُعد الحنث باليمين من الموبقات ومن الكبائر التي لا يغتفر صدورها من شخص في شريعـة الجاهليين . وقد أمر الإسلام بالوفاء بالعهد[2] .

و (العهد) بمعنى الحلف أيضاً وقيل : العهد كل ما عوهد عليه ، وكل ما بين الناس من المواثيق . وهو أيضـاً الموثق واليمين . ولذلك ورد : (على عهد الله) و (أخذت عليه عهد الله) ، و (ولي العهد) ، لأنه وليّ الميثاق الذي يؤخذ على من بايع الخليفة . وعلى من يعطي العهد الوفـاء به : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)[3] . (وما وجدنا لأكثرهم من عهـد)[4] ، أي من وفـاء[5] . ووردت لفظة (عاهدتم) بمعنى التحالف والتعاقـد في مواضع من كتاب الله[6] .

ويرد (الميثاق) بمعنى العهـد . والمواثقة المعاهـدة . وأما (التواثق) ، فالتحالف والتعاهد . وفي القرآن الكريم : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق)[7] (فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)[8] ، (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه)[9] . وقد قال العلماء في الميثاق إنه : عقد مؤكد بيمين

---

١ اللسان (٣٥٦/١٧) ، (٤٦٢/١٣) (بيروت) ، تاج العروس (٧٥/٦) .
٢ تفسير ابن كثير (٥٠٩/٢) ، تفسير الرازي (١٤٧/٢) ، تفسير الطبري (١٨٢/١) ، جامع أحكام القرآن ، للقرطبي (٢٤٦/١) ، (٣٠٧/٩) ، تفسير ابن حيان الأندلسي: البحر المحيط (١٧٤/١) ، تفسير الطبرسي (٤٠/١) ، تفسير ابن مسعـود (٧٦/١) ، تفسير الخازن (٦١/١) ، تفسير البيضاوي (٨٣/١) .
٣ النحل ، الآية ٩١ ، الكشاف (٤١/١) ، تفسير الطبري (٣١٩/٣) ، (١٨٢/١)، تفسير الطبرسي (٣٧٩/٢) .
٤ الأعراف ، الآية ١٠٢ .
٥ اللسان (٣١١/٣) .
٦ التوبة ، الآية ١ ، ٤ ، ٧ النحل ، ٩١ ، تفسير الرازي (٤٧/٥) ، شرح صحيح البخاري (٢٠٣/١١) ، النهاية لابن الأثير (١٥٩/٣) ، تفسير الخازن (٤٢٣/١).
٧ الرعـد ، الآية ٢٠ .
٨ الأنفال ، الآية ٧٢ .
٩ الرعـد ، الآية ٢٥ .

وعهد[1] . والحلف الذي نتحدث عنه هو (ميثاق) ، لأنه عهـد يؤخذ بحلف مؤكد بيمين .

وتكون بين المتحالفين مواثيق على الوفاء بالالتزامات التي نص عليها ، واتفق الطرفان المتعاقدان أو الأطراف المتعاقدة على الوفاء بها كاملة غير منقوصة .

ويكون الحلف بين الأفراد ، كما يكون بين الجماعات والحكومات ، فيتحالف الأفراد بعضهم مـع بعض ، ويعلن ذلك الحلف ليكون معلومـاً بين الناس ، وتتحالف القبائل بعضها مع بعض ، ويعلن حلفها هذا ليكون معلوماً عند أفرادها وعند القبائل الأخرى ، وتتحالف الحكومات : حكومات عربية مع حكومات عربية ، أو حكومات عربية مع حكومات أعجمية . وفي المسند أمثلة عديدة على محالفات الحكومات العربية بعضها مع بعض ، أو محالفتها لحكومة أجنبية مثل : الحبشة ، كما في الكتابات الآشورية وفي مؤلفات اليونان واللاتين ، وفي كتب أهل الأخبار أمثلة من محالفات العرب مع غيرهم ، أو محالفاتهم بعضهم مع بعض .

والفكرة التي حملت العرب على عقد الأحلاف ، هي نفس الفكرة التي تدفعهم اليوم على عقد الأحلاف بينهم أو مع غيرهم . وهي الضرورة والدفاع عن مصالح خاصة أو عامة ، أي نفس الفكرة التي تدفع الدول على التكتل والتحزب وعقد الأحلاف الدولية ، في هـذا اليوم ، أو في المستقبل . وهناك أحـلاف عقدت لأغراض هجومية ، وأحلاف عقدت لمصالح اقتصادية ، مثل أكثر أحلاف قريش مع القبائل . وأحـلاف لتثبيت نظم واقرار قوانين وأخـذ حقوق وردع ظالم وانصاف مظلوم .

وقد تعقد الأحلاف لأغراض معينة ، فتكون لها آجال محددة ، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صدّ غزو سيقع عليها أو لمساعدتها في غزو قبيلة أخرى ، أو الوفوف موقف حياد تجاه الغزو . أو مساعـدة قبيلة قبيلة أخرى للأخذ بثأر من قبيلة لها ثأر معها . ومثل هـذه الأحلاف لا تعمر طويلاً ، إذْ ينتهي أجلها بانتهاء الغاية التي من أجلها عقد الحلف .

---

١ المفردات (٥٢٢) ، اللسان (١٢/١٥٤) ، الصحاح (٤/١٥٦٤) ، الكشاف (١/١٧) ، البيضاوى (٧/١٦١) ، تفسير الطبري (٣/٣٢٩) ، اللسان (١٠/٣٧٠) (بيروت) ، تفسير الطبرسي (٦/١٥٧) .

والغالب ان الضعيف هو الذي يبحث عن حليف يحالفه ، ليقوّي بهذا التحالف نفسه ، ويعز به مكانه . قال البكري : (فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضعاف القوي للضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز وحالف القليلُ منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالّهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم)[1] .

لقد دفعت الضرورات قبائل جزيرة العرب الى تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول . واذا دام الحلف أمداً ، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة ، فإنّ هذه الرابطة تنتهي الى نسب يشعر معه أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جدّ واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتنضم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى ، وهكذا نجد في الجزيرة أحلافاً تتكون ، وأحلافاً قديمة تنحل أو تضعف[2] .

لم يكن في مقدور القبائل أو العشائر الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي يشدّ أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الأخذ بالثأر منها . لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف ، إلا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد ، وكانت تتفاخر بنفسها ، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن ، وقد تنزل القبائل على حلفائها ، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة[3] .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً ، وطالما انتهت تلك الأحلاف كما انتهت عند العرب الى نسب ، فيشعر المتحالفون انهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد[4] . ويقال للحلف (تكلع)

---

١ معجم ما استعجم (١/٥٣) .

٢ Goldziher, Muh. Stud., I, S., 64.

٣ الأغاني (١٢/١١٨ ، ١٢٣ وما بعدها) .

٤ Keunen. De Godsdienst van Israel, I, P. 113, Noldeke, in ZDMG., XI, S. 15.

عند اليمانيين[1] . (وبه سمّي ذو الكلاع ، وهو ملك حميريّ من ملوك اليمن من الأذواء ، وسُمّي ذا الكلاع ، لأنهم تكلعوا على يديه أي تجمعوا ، واذا اجتمعت القبائل وتناصرت فقد تكلعت)[2] .

ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل المؤثر في تأليف الأحلاف ، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح . وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها ، كأن تعقد لغزو قبيلة ، أو للوقوف أمام غزو محتمل ، أو لأجل معين . ومتى نفذت أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ ، انحل الحلف . وتعدّ هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التاريخ العربي ، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة ، لذلك نجدها تتألف للمسائل الداخلية التي تخص قبائل جزيرة العرب ، ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب ولمقاومة أعداء العرب . ولا يمكن ان نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية ان يفعل غير ذلك . فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها ، فاذا ارتحلت عنها ، ونزلت بأرض جديدة ، كانت الأرض الجديدة هي الموطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادات القبائل ، أصبحت حتى اليوم من أهم العوائق في تكوين الحكومات الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية للأعراب .

وخير مثال للقبائل التي اقتضت مصالحها التكتل والتحالف بينها ، هو الحلف الذي قيل له (تنوخ) . فقد اجتمع بالبحرين قبائل من العرب ، وتحالفوا وتعاقدوا على التناصر والتساعد والتآزر فصاروا يداً واحدةً ، وضمهم اسم (تنوخ)[3] . وحلف (فرسان) ، وهو حلف آخر قديم تكوّن من انضمام قبائل عديدة بعضها الى بعض للتناصر والتآزر[4] . ولما لم يعرف أهل الأخبار واللغة شيئاً من تلك الأمور العادية ، أوجدوا تلك القصص والأخبار والأنساب المدوّنة

١ المخصص (١٠٩/٣) .
٢ اللسان (٣١٣/٨) ، (كلع) .
٣ تاريخ ابن الأثير (١٣٥/١) ، تاريخ الطبرى (٧٤٦/١) (طبعة لبدن) ، الاغاني (١٥٥/١١) .
٤ الاشتقاق (ص ٨) ، Muh. Stud., I, S. 66.

عن تنوخ وأمثال تنوخ[1] .

ومن هذا القبيل ، الحلف الذي قيل له : (البراجـــم) . وهو من عمرو وظليم وقيس وكلفة وغالب . زعم أهل الأخبار ، ان (حارثـــة بن عمرو بن حنظلة) ، قال لهم : أيتها القبائل التي قد ذهب عددها ، تعالوا فلنجتمع ولنكن كبراجم يدي هذه . فقبلوا ، فقيل لهم البراجم . وهم يد مع عبد الله بن دارم . فنحن أمام حلف من أحياء قلّ عددها وذهب أمرهـــا ، وخافت على نفسها ، فلم تجد أمامها من وسيلة للمحافظة على حياتهـــا سوى التحالف ، فكان من ذلك حلف البراجم[2] .

ونجد لفظة (الحليفان) للدلالة على تحالف قبيلتين ، أو (الأحلاف) تعبيراً عن حلف عقد بين قبيلتين أو أكثر ، تتردد في كتب أهل الأنساب والأخبار . وقد قصد بها أحلاف عديدة . فقد قيل لأســـد وغطفان (الحليفان) ، لأنهما تحالفا وتعاقدا وعقدا حلفاً بينهما على التناصر والتآزر ، كما قيل لهما (الأحلاف) . والأحلاف أسد وغطفان[3] . وقيل لقوم من ثقيف : (الأحـــلاف) . والظاهر أنهم كانوا في الأصل طوائف لم تتمكن من البقاء وحدها في وسط عالم لا يعيش فيه إلا القويّ ، فتحالفت للدفاع عن نفسها ، ويقال لأسد وطيء (الحليفان) ولفَزارة وأسد (حليفان) ، لأن خزاعة لما أجلت بني أسد عن الحرم ، خرجت فحالفت طيّئاً ، ثم حالفت بني فزارة[4] .

ولما تحالفت غطفان وبنو أسد وطيء ، قيل لهم : الأحاليف ، لعقدهم حلفاً على التناصر والتآزر[5] .

١ Muh. Stud., I. S., 66.

٢ خلق الانسان (٢٣٠ وما بعدها) ، تاج العروس (١٩٩/٨) ، (البرجمة) .

٣ قال زهير :

فمن مبلغ الأحـلاف عني رسالة وذبيان : هل أقسمتم كـل مقسم ؟

وفي رواية (ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة) ، اللسان (٤٠٠/١٠) ، ديوان زهير (ص ١٨) ، اللسان (٥٤/٩) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٩) ، الصحاح (١٣٤٦/٤) .

٤ اللسان (٤٠١/١٠) .

٥ قال ربيعة بن مقروم :

اذا حل أحيـاء الأحاليف حـوله بـذي لجب هداتـه وصواهـله

المفضليات (ص ٣٦٤) ، تاج العروس (٧٥/٦) ، شرح ديوان زهير (١٨) .

وقد ورد في معلقة (الحارث بن حلِّزة اليشكُري) اسم (حلف ذي المجاز) الذي عقد بين بكر وتغلب بوساطة (عمرو بن هند)، وقد أخذ فيه عمرو بن هند العهود والمواثيق والكفلاء من الطرفين حذر الجور والتعدي. [1]

وتكون الهيمنة في الاحلاف التي تعقد بين قبائل غير متكافئة للقبائل القوية، أي للقبائل التي لجأت اليها القبائل الضعيفة لعقد حلف معها. فتكون الكلمة عندئذ لسادات القبائل البارزة في هذا الحلف. وعلى القبائل الضعيفة دفع شيء للقبائل القوية في مقابل حمايتها لها وبسط سلطانها عليها، ومنع ما قد يقع من اعتداء من قبائل اخرى عليها.

وقد كانت هذه الاحلاف تدوم ما دامت المصالح متشابهة، فاذا اختل التوازن بين المتحالفين، أو وجد أحد الطرفين أن مصالحه تقتضي الانضمام الى حلف آخر، فسخ ذلك العقد، وعقد حلفاً آخر، وحالف قبائل أخرى قد تكون معادية لقبائل الحلف السابق، ويقال لفسخ الأحلاف (الخلع). [2]

وهكذا كانت الحياة السياسية في الجاهلية: أحلاف تتكون وأخرى قديمة تنحل. ولا سيما اذا كانت قد تكوّنت من قبائل لا رابطة دموية بينها ولا اشتراك في المواطن، وانما كانت عوامل مؤقتة وأحوال طارئة اقتضت تكتلها، ثم اقتضت انحلالها لزوال تلك الأسباب.

وتعقد الاحلاف احياناً بين عشائر وبطون قبيلة واحدة، تعقد على نمط الأحلاف التي تعقد بين القبائل. وقد يعقد الحلف بين عشائر وبطون قبيلة، وبين عشائر وبطون قبائل غريبة. وذلك بسبب حدوث مشاحنات ومنافسات بين عشائر وبطون القبيلة، فتتكتل العشائر والبطون وتتحزب وقد تتقاتل، وتضطر عندئذ الى تأليف أحلاف بينها لتتغلب بها على العشائر والبطون المنافسة. ومثل هذه الاحلاف تضعف القبيلة وتؤدي الى تصدعها ما لم يتدارك أمرها أصحاب الرأي والسداد فيتولوا

١ واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه العهود والكفلاء
شرح المعلقات السبع، للزوزني (ص ١٦٦).

٢ Muh. Stud., I. S., 68.

اصلاح ما قد وقع بين رجال القبيلة من فساد وتهدئة الحال حفظاً لمصلحة القبيلة . ونجد أمثلة من هذا القبيل عند أهل الاخبار .

ولم يكن من الواجب على كل أحياء قبيلة ، الاشتراك في الاحلاف التي تعقدها غالبية أحياء تلك القبيلة . فقد اعتزلت (حنيفة) الحلف الذي عقدته قبائل (بكر) في الجاهلية . لأنها كانت من أهل المدر ، وكان الحلف في أهل الوبر . فلما جاء الاسلام ، دخلت في (عجل) ، وصارت لهزمة . [1]

وكان في العرف الجاهلي أن الاحياء التي تتحضر من قبيلة ما ، لا تدخل في الاحلاف التي تعقدها الاحياء المتبدية ، لاختلاف الحالة ، لا سيما اذا كانت المواطن بعيدة . فالحضارة تبعد الاعراب عمن يتحضر منهم . الا اذا وجدت مصالح خاصة ، والمصالح اساس التعامل .

ونظراً الى ما للحلف من قدسية في النفوس ، أصبح من المعتاد عقده في مراسيم مؤثرة ورد وصفُ بعضها في الاخبار ، مثل حلف (المطيّبين) الذي عقد في مكة بعد اختلاف بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل مع بني عبد الدار بن قُصَيّ ، واجماعهم على أخذ ما في أيدي بني عبد الدار مما كان قُصَيّ قد جعله فيهم من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً ، على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضاً (ما بَلّ بحرٌ صوفةً) ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فيزعمون أن بعض نساء بني عبد مناف أخرجنها لهم ، فوضعوها لاحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسكوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسُمُّوا المطيبين ، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فَسُمّوا الاحلاف . [2]

١ النقائض (٧٢٨) ، تاج العروس (٦٩/٩) ، (لهزم) .

٢ ابن هشام (١٤٣/١ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (١٨٣/١) ، الطبري (١١٣٨/١) (ليدن) ، اللسان (٤٠٠/١٠) ، المعارف (٢٠٤) (طبعة وستنفلد) ، اليعقوبي (٢٨٧/١) (هوتسما) ، التنبيه (١٨٠) (طبعة الصاوي) ، تاج العروس (٧٥/٦) ، (حلف) .

(والأحلاف ست قبائل : عبـد الدار ، وجمح ، ومخزوم ، وبنو عدي ، وكعب ، وسهم) . [1]

ومن هـذا القبيل حلف الفضول ، اذ تداعت قبائل من قريش الى حلف وتعاهدوا وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من اهلها ومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عنه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول . [2] وهو من الاحلاف التي ظل الناس يحترمون أحكامها حتى في الاسلام . وقد عقد على هذه الصورة : اجتمعت بنو هاشم وأسد وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان ، وصنع لهم طعاماً كثيراً ، ثم (عمدوا الى ماء من ماء زمزم فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه ، ثم أتوا به فشربوه) . [3]

وأضيف الى هذه الاحلاف ، حلف (الرباب) . وهو حلف عقـد بين المتحالفين بادخال أيديهم في (رُبّ) وتحالفوا عليه ، أو لانهم جاؤوا بربّ فأكلوا منه ، وغمسوا أيديهم فيه ، وتحالفوا عليه . فصاروا يداً واحدة ، وقيل : لأنهم اجتمعوا كاجتماع الربابة ، وهم : تيم وعديّ وعُكْل ومُزَيْنَة وضَبّة ، او : ضبّة وثور ، وعُكْل ، وتيم ، وعديّ . [4]

ومن تلك الاحلاف ، حلف لَعَقة الدم . وقد عقد على أثر تخاصم القبائل من

١ اللسان (٩/٥٤) ، ابن هشام ، سيرة (١/٨٤) ، البداية والنهاية (٢/٢٠٩) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٢٦٧) ، المسعودي ، التنبيه (١٨٠) ، المروج (٢/٥٩) ، ابن خلدون (٢/٦٩٤) ، المحبر (١٦٦) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، القاموس (٣/٢٨٠) ، النويري ، نهاية الأرب (١٦/٣٥) ، المعارف (ص ٢٠٤) (طبعة هوتسما) ، دائرة المعارف الاسلامية (٨/٤٩) (الترجمة العربية) ، لسان العرب(٩/٥٤) .
Caetani, Annali, Vol., I, Intro., 120, 2, I, Anno., 8, 20-21, Ency.; 2; P. 307.

٢ ابن هشام (١/١٤٥) ، الأغاني (١٦/٦٤ وما بعدها) ، المعارف (٢٠٤) (طبعـة هوتسما) ، الاشتقاق (١١١) (طبعة وسننفلد) ، العقد الفريد (٢/٤١) ، اللسان (١٠/٣٩٩) ، السـيرة الحلبية (١/١٤٦) ، تاريـخ الخميس (١/٢٦١) ، المحبر (١٦٧) ، عيون الأثر (١/٥٢) .

٣ الأغاني (١٦/٦٤) .

٤ الاشتقاق (١١١) ، الصحاح (١/١٣١) ، اللسان (١/٣٨٨ ، ٤٠٣) ، تاج العروس (١/٢٦٤) ، الأغاني (٩/١٤) ، العقد (٢/٥٩) .

قريش في وضع الحجر الأسود في موضعه . فلما استعدت للقتال (قربت بنـو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لُؤيّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا (لَعَقَةَ الدم) . [1] ويظهر أن عقد الحلف بادخال الأيدي في الدم من المراسيم المعروفة . وقد عرف قوم من بني عامر بن عبد مناة بن كنانة بلعقة الدم . وكانوا ذوي بأس شديد . [2] وجاء أن خَثْعَماً انما سُموا خثعماً لانهم غمسوا ايديهم في دمٍ جَزُور . [3]

وتعقد الاحلاف على النار كذلك ، وقد وصف (هيرودوتس) طريقة من طرق التحالف والمؤاخاة والمحافظـة على العهود عند العرب ، فذكر أن العرب يحافظون على العهود والمواثيق محافظة شديدة ، لا يشاركهم في ذلك أحد من الأمم ، ولها قداسة خاصة عندهم ، حتى تكاد تكون من الامور الدينية المقدسة . واذا ما أراد أحدهم عقد حلف مع آخر ، أوقفا شخصاً ثالثاً بينهما ليقوم باجراء المراسيم المطلوبة في عقد الحلف ، ليكتسب حكماً شرعياً ، فيأخذ ذلك الشخص حجراً له حافة حادة كالسكين يخدش به راحتي الشخصين قرب الإصبع الوسطى . ثم يقطع قطعة من ملابسهما فيغمسها في دمي الراحتين ، ويلوث بها سبعة أحجار . ويكون مكان هذا الشخص الذي يقوم باجراء هذه الشعائر في الوسط ، يتلو أدعية وصلاة للإلهين (باخوس) (Bachus) و (اورانيا) (Urania) ، حتى اذا انتهوا منها قاد الحلف حليفه الى أهله وعشيرته لإخبارهم بذلك ، وللاعلان عنه ، فيصبح الحليف أخاً له وحليفاً ، أمرهما واحد بالوفاء . [4]

وما ذكره (هيرودوتس) عن عقد العرب احلافهم على النار ، هو صحيح على وجه عام . يؤيده ما ذكره اهل الاخبار عن (نار التحالف) . وقولهم : كان أهـل الجاهلية اذا أرادوا أن يعقدوا حلفاً ، اوقدوا ناراً وعقدوا حلفهم

---

١ ابن هشام (١/٢١٣) ، عيون الأثر ، لابن سيد الناس (١/٥٢) ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر (١/١١٤) ، تاج العروس (٧/٦٢) ، القاموس (٣/٢٨٠)، نسب قريش (٢٨٣) .

٢ الأغاني (٧/٢٦) .

٣ المفضليات (ص ٧٠٥) (واشتقاق خثعم فيما ذكر ابن الكلبي أنهم نحروا جزورا ، فتخثعموا عليه بالدم ، أي تطلوا به) ، الاشتقاق (٢/٣٠٤) .

٤ Harodotus, Vol., I, P. 213, (Rawlinson).

عندها ، ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ، ويحلّ العقد ، وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت ، فاذا استشاطت ، قالوا للحالف : هذه النار تهددتك ، يخوّفونه بها حتى يحافظ على العهد والوعد ، ولا يحلف كذباً ، ويضمر غير ما يظهر . ولذلك عرفت هذه النار بنار التحالف . وهي نار يقسم المتخاصمون عليها كذلك ، فان كان الحالف مبطلاً نكل ، وان بريئاً حلف ولهذا سمّوها أيضاً (نار المهوّل) و (الهولة) [1] . وذكر أنهم كانوا لا يعقدون حلفاً الا عليها . وقد أشار الى هذه النار (أوس بن حجر) ، اذ قال :

اذا استقبلته الشمس ، صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهوّل حالف

كما أشار اليها الكميت :

هُمو خوّفوني بالعمى هُوّة الردى كما شبّ نار الحالفين المهوّل [2]

وقد ذكر أهل الاخبار حلفاً سمّوه : (حلف المحرقين) ، وزعموا أن المتحالفين تحالفوا عند نار حتى أمحشوا أي احترقوا ، وأن (يزيد بن أبي حارثة ابن سنان ، وهو أخو هرم بن سنان الذي مدحه زهير ، يمحش المحاش ، وهم بنو خصيلة بن مرة وبنو نشبة بن غيظ بن مرة على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة ، فتحالفوا على بني يربوع على النار ، فسُمّوا المحاشّ بتحالفهم على النار . [3] وزعموا أن المحاشّ القومُ يجتمعون من قبائل شتى ، فيتحالفون عند النار . [4]

وذكر علماء اللغة أن (المحاشن) : القوم يجتمعون من قبائل يحالفون غيرهم من الحلف عند النار . وكانوا يوقدون ناراً لدى الحلف ليكون أوكد . وقد أشير الى ذلك في شعر للنابغة ، اذ يقول :

جمع محاشك يا يزيد ، فإنني أعددت يربوعاً لكم ، وتميما

قيل : يعني صرمة وسهماً ومالكاً بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وضبّة بن سعد ، لانهم تحالفوا بالنار ، فسمّوا المحاش . [5]

---

١ صبح الأعشى (٤٠٩/١) ، اللسان (٧٠٣/١١) ، سبائك الذهب ، للسويدي (١١٩) ، بلوغ الأرب (١٦٢/١) .

٢ نهاية الأرب (١١١/١) .

٣ اللسان (٢٣٨/١٤) ، و (ورد غيط) و (غيظ) .

٤ تاج العروس (٣٨٤/٤) .

٥ اللسان (٣٤٤/٦ وما بعدها) ، (محش) ، تاج العروس (٣٤٨/٤) ، (محش) .

وقريب من هذا ما كانت تفعله قريش حين تعقد حلفاً ، فيأخذ الحليف حليفه الى الكعبـــة ، ثم يطوفان بالأصنام لإشهادها على ذلك ، ثم يعود الحليف بحليفه لاشهاد قريش ومن يكون في الكعبة آنئذ على صحة هذا الحلف ، وقبوله محالفة الحليف ، اذ أصبح وله ما له وعليه ما عليه ، وعلى قومه حمايته حمايتهم له . وقد ذكرت كتب السيرة والاخبار والأدب طرفاً من اخبار المحالفات التي كانت تعقد بمكة وكيفيتها وبعض المراسيم التي تمت فيها .

ولا تعرف صيغة واحدة معينة للقسم الذي يقسم به المحالفون . فمنهم من أقسم بالاصنام التي يعبدونها ويقفون عندها حين يعقدون الحلف . ومنهم ، وهم أغلب أهل مكة ، من كانوا يحلفون عند الركن من الكعبة ، فيضع المتحالفون أيديهم عليه ، فيحلفون . وقد ذكر أن قَسَمَ قريش والاحابيش عند الركن يوم تحالفوا وتعاقدوا ، حلفوا (بالله القائل وحرمة البيت والمقام والركن والشهر الحرام على مصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الارض ومن عليها ، وعلى التعاقد والتساعد على من عاداهم من الناس ما بلّ بحرٌ صوفةً ، وما قام حراء وثبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم القيامة) .[1]

ومنهم من أقسم بالآباء والاجداد ، لما لهم من مكانة ومقام في نفوسهم . ومنهم من حلف وعقد الحلف عند المشاهد العظيمة ، أو في معابد الاصنام ، أو عند قبور سادات القبائل المحترمين ، فيحلفون بصاحب هذا القبر ويذكرون اسمه على التعاقد والتآزر أو على ما يتفق المتحالفون عليه ، وعلى الوفاء بالعهد . وقد روي أن النبي أدرك (عُمَرَ) في رَكْب وهو يحلف بأبيه ، فنادى رسول الله : (اما ان الله عزّ وجلّ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . من كان حالفاً ، فليحلف بالله ، أو يصمت) .[2]

وفي كتب أهـــل الاخبار والأدب اسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عقدت في مراسيم خاصة ، يمكن الوقوف عليها وتعيينها من دراستها والوقوف على معانيها ، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء .

ومن عاداتهم في عقد الاحلاف ما ذكرته من التحالف على الطيب أو النار أو

١ اليعقوبي (١/٢١٢) .
٢ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، للشيخ منصور علي ناصف (٣/٧٤) .

القسم عند صنم . (وفي حديث الهجرة : وقد غمس حلفاً في آل العاص ، أي أخذ نصيباً من عقدهم وحلفهم يأمن به . وكان عادتهم أن يحضروا في جفنة طيباً أو دماً أو رماداً ، فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد)[1] . وحلفوا بالملح وبالماء . (قال ابن الاعرابي) : (والعرب تحلف بالملح والماء تعظيماً لهما) .[2] ومن المجاز (ملحه على ركبته) ، بمعنى قليل الوفاء .[3] وحلفوا بالخبز والملح ، وعلى من يأكل خبز وملح شخص الوفاء لذلك الشخص . ولا يجوز الاعتداء على من أكل خبز وملح قبيلة . وعليها الدفاع عنه وأخذ حقه ممن ظلمه من أهل تلك القبيلة .

وتدوّن الاحلاف احياناً لتوكيدها وتثبيتها ، وتحفظ عند المتعاقدين ، وقد تودع في المعابد ، كالذي روي في خبر (صحيفة قريش) يوم تآمر المشركون وتحالفوا على مقاطعة (بني هاشم) في شِعْبهم ، اذ كتبوا صحيفة بما اتفقوا عليه ، ثم أودعوها كما يقول أهل الاخبار جوف الكعبة ، وكالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب ، وتعاهدوا وأقسموا على اتباع ما كتب فيه ، والعمل به ، والى ذلك أشير في شعر قيس [4]

ونجد في شعر (زهير) :

الا أبلغ الاحلاف عني رسالة وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم ؟

اشارة الى قسم أخذ من المتعاقدين ، ليلتزموا الوفاء بما تحالفوا عليه ، وهم (الاحلاف) . كما نجد في شعر الحارث بن حلزة اليشكري :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه العهود والكُفَلاءُ
حذر الجور والتعدّي ، وهل ين قض ما في المهارق الاهواءُ

اشارةً الى العهود والرهائن التي أخذت من (بني تغلب) و (بني بكر) للوفاء بما توافقوا وتعاهدوا عليه ودوّنوه من شروط على (المهارق) ،

١ تاج العروس (٤/٢٠٣) ، اللسان٦/١٥٧) ، (غمس) .
٢ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٣ قال مسكين الدارمي :
لا تلمها انها من نسوة ملحها موضوعة فوق الركب
أي هذه قليلة الوفاء ، تاج العروس (٢/٢٣٠) ، ملح .
٤ لعمري لقد حالفت ذبيان كلها وعبسا على ما في الأديم الممدد
شعر قيس (٢١) .

أي القراطيس ، توكيداً لما اتفقوا عليه مشافهة . وكان الملك (عمرو بن هند) ، قد أصلح بين الطرفين بحلف ، سمّي حلف ذي المجاز ، فأخذ عليهم المواثيق والرهائن [1] .

ويوثق ما اتفق عليه عن عهود وأحلاف ومواثيق ، رؤساء الأطراف المتعاقدة ، بأن تدوّن أسماؤهم وتختم بخواتيمهم ، لتكون شهادة بصحة ما اتفق عليه ، كما يفعل المتعاهدون على صحة العقد ، وعلى صحة الخواتيم ، وبأن ما اتفق عليه كان بحضورهم ، وبأنهم شهود على كل ذلك .

وفي أخبار أهل الأخبار شواهد تشهد بتدوين الجاهليين لعقود الأحلاف . ورد في شرح (التبريزي) على المعلقات قوله في معرض شرحه لمعلقة (الحارث بن حلزة اليشكري) : إن كانت أهواؤكم زيّنت لكم الغدر والخيانة بعد ما تحالفنا وتعاقدنا ، فكيف تصنعون بما هو في الصحف مكتوب عليكم من العهود والمواثيق والبيّنات فيما علينا وعليكم [2] ؟ وورد ان أهل الجاهلية (كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان) [3] . وورد في شعر ينسب الى (درهم بن زيد الأوسي) ، ما يفيد بوجود صحف مكتوبة بعهود عقدت بين الأوس والخزرج [4] . ووردت اشارة الى (الصحف) : صحف العهود والمواثيق في شعر للشاعر : قيس بن الخطيم [5] .

وروي انه قد كان عند (عمر بن ابراهيم) من ولد (أبرهة بن الصباح) الحبشي المعروف ، كتاباً دوّن (الدينوري) صورته ، فيه حلف اليمن وربيعة في حكم الملك (تبع بن ملكيكرب) . وقد دون بشهر رجب الأصم [6] . وهو كتاب يظهر انه دوّن في الاسلام ، وان واضعه لم يكن له علم بأحوال اليمن في

١ شرح القصائد العشر ، للزوزني (٣٤٥) ، شرح الفصائد السبع (٢٠١) ، الحيوان ، للجاحظ (٦٩/١ وما بعدها) ، المعرب للجواليقي (٣٠٣) .
٢ شرح المعلقات (٢٦٨ وما بعدها) .
٣ الحيوان ، للجاحظ (٦٩/١ وما بعدها) .
٤ وان ما بيننا وبينكم حين : يقال : الأرحام والصحف
ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي (ص ٦٦) .
٥ ديوان قيس بن الخطيم (١٩) .
٦ الأخبار الطوال (٣٥٤) .

ذلك العهد . على كلّ ، فإنه يشير الى وجود تدوين العهود عنـد الجاهليين . ولما تحالفت قريش على مقاطعة (بني هاشم) و (بني المطلب) كتبت كتاباً بما اتفقت عليه ، كتبه (منصور بن عكرمة العبدري) ، وذكر انه حفظ عند (أم الجُلاّس بنت مُخربـة الحنظلية) خاله أبي جهل ، وذكر انـه علق في جوف الكعبة[1] .

وشهادات الشهود على صحة العقود أو الأوامر ، معروفة عند أهل اليمن ، إذْ وردت في الأوامر الملكية التي أصدرها ملوك اليمن وفي قوانينهم التي كانوا يصدرونهـا لأتباعهم . وقد عرفت عنـد أهل مكة ، وهم قوم تجار وأصحاب مصالح ، ولهـم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القرى وسادات القبائل . وفي القرآن الكريم ألفاظ لها صلة بالشهادة والشهود ، منها : (شهدتم) ، و (شهدوا) ، و (أشهد) و (تشهد) ، و (تشهدون) ، و (شاهد) ، و (الشهادة) ، وقد أمر بوجوب المحافظة على الشهادة وعدم كتمانها : (ولا تَكْتُموا الشَّهادَةَ ، ومن يكتمها فإنه آثم قَلْبُهُ)[2] .

ولما كانت مراسيم الأحلاف من المراسيم المهمة ومن الأحداث الخطيرة ، اقترنت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين . فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على مائدة واحدة كالذي ذكرته من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين يوم عقدوا (حلف الفضول) . وقد تكون الوليمة نفسها مظهراً من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف ، لما للخبز والملح من أثر عند العرب . فعلى من يأكل خبز رجل وملحَه ان يمرّ به ويوفي له ، ولهذا يعنف الإنسان الإنسانَ الغادر ويوبخه ، لأنه لم يراع حرمة الخبز والملح ، وهي حرمة تكاد تصل الى حرمة الدم والرحم .

يتبين مما تقدم ان العرب كانت ترى توكيد الأحلاف بكسوتها بقدسية خاصة ، وذلك بعقدها مراسيم ذات صبغة دينية . وقد راعت في تلك المراسيم جهد إمكانها إيلاج مـا يوضع في تلك المراسيم الى أجسام المتحالفين ، وكأنهم أرادوا بذلك ادخال القسم وما حلف عليه في جسم المتحالفين ، ولهـذا كان الذين يغمسون اصبعهم في جفنة الدم أو في دم الجزور ، يلطعون إصبعهم ، وكان الذين يغمسون

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٠٨ وما بعدها) .
٢ البقرة ، الآية ٢٨٣ .

أصابعهم في الطيب يلطعون أصابعهم أيضاً ، وكان الذين يقسمون على الماء المقدس يشربون من ذلك الماء ؛ وكان الدين يجرحون أيديهم ويعقدون الحلف يضعون راحتي المتحالفين اليمنى إحداهما فوق الأخرى ، الى آخر ذلك من مظاهر توحي ان المتحالفين لم يكونوا قد فعلوا ذلك عبثاً ومن غير هدف ولا قصد ، بل أرادوا من كل ذلك التأثير في المتحالفين وجعلهم يشعرون بأن حلفهم هذا أي قسمهم على التحالف لتنفيذ ما اتفق عليه قد صار جزءاً من جسمهم ، وقد حل في دمهم ، كما يحل الدم والخبز في دم الجسم .

وتعقد الأحلاف الخطيرة المهمة أمام الأصنام وفي المعابد في الغالب ، وذلك كي تكتسب قدسية خاصة . ويشرف على عقدها سادن الصنم ، وقد يساعده مساعدون ، ليقوموا بمساعدته في إتمام المراسيم .

ويكون بين قبائل الحلف سلم وود ، لذلك يستطيع أبناء القبائل المتحالفة المرور بمواطن هذه القبائل غير خائفين ، وتمر قوافلهم بأمان لا يُتعرضُ لها ، ولا تجبى إلا على وفق ما اتفق عليه وجرت عليه عادة المتحالفين . وعلى أبناء هذه القبائل حماية من يجتاز بأرضهم وتقديم المساعدات له واضافته ودفع الأذى عنه ، وإذا وقع عليه اعتداء من قبائل غريبة فعليه مساعدته والذب عنه واستصراخ قومه لنجدته ، لأنهم من حلف واحد . وعلى الإنسان ان يتعصب للحلف تعصبه لقبيلته .

ويلاحظ ان الأحلاف إذا طالت وتماسكت ، أحدثت اندماجاً بين قبائل الحلف ، قد يتحول الى النسب . بأن تربط القبائل والعشائر الضعيفة نسبها بنسب القبيلة البارزة المهيمنة على الحلف . وينتمي الأفراد الى سيد تلك القبيلة البارزة ، فتدخل أنسابها في نسب الأكبر . وفي كتب الأنساب والأدب أمثلة عديدة على تداخل الأنساب ، وانتفاء قبائل من أنسابها القديمة ودخولها في أنساب جديدة .

ويؤدي انحلال الحلف أو انحلال عقد عشائر القبيلة الذي هو في الواقع حلف سمي (قبيلة) الى انحلال الأنساب وظهور أنساب جديدة ، فان القبائل المنحلة تنضم الى حلف جديد ، فيحدث ما ذكرته آنفاً من تولد أنساب جديدة ، ومن تداخل قبائل في قبائل أخرى ، وأخذها نسبها . ومن هنا قال (كولد زيهر) : إنه لفهم الأنساب عند العرب ، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف ، فإنها تكوّن القبائل ، لأن أكثر أسماء أجداد القبائل هي أسماء أحلاف ، ضمت عدداً

من القبائل توحدت مصالحها فاتفقت على عقد حلف فيما بينها على نحو ما مر[1] .

وفي كتب الأنساب والأدب أدلة عديدة معروفة على أسماء أحلاف ، مشت بين الناس وفشت وشاعت حتى صارت كأنها نسب من الأنساب . من ذلك (الأحلاف) و (المطيبون) . جاء (ابن صفوان) الى (عبد الله بن عبّاس) ، فقال له : (نعم الإمارة إمارة الأحلاف ، كانت لكم) فقال (ابن عبّاس) : (الذي كان قبلها خيراً منّا . كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من المطيبين ، وكان عمر من الأحلاف) يعني (إمارة عمر)[2] . وقيل لعمر : أحلافي ، لأنه عَدَويّ . والأحلاف صار إسماً لهم كما صار الأنصار إسماً للأوس والخزرج[3] .

وقد أشرت سابقاً الى اسم (تنوخ) . و (الأحابيش) ، حلف عقد عند جبل حبش بأسفل مكة ، فعرف المتحالفون به . وهم (بنو المصطلق ، والحَيا ابن سعد بن عمرو ، وبنو الهون بن خزيمة) ، وذلك على حدّ قول أكثر أهل الأخبار[4] .

و (الرباب) حلف أيضاً ، ضم خمس قبائل ، هي : تيم ، وعدي ، وعُكْل ، ومزينة ، وضبّة ، ولكنه سار بين الناس ومشى وكأنه اسم جماعة ترجع الى نسب واحد[5] . وأما (الأحلاف) ، الذين ورد اسمهم في شعر (زهير ابن أبي سلمي) ، فهم (أسد) و (غطفان) ، ويقال لحلفهما المذكور أيضاً (الحليفان)[6] . و (الأحلاف) : كذلك قوم من (ثقيف)[7] .

لقد تركت الأحلاف أثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل

---

١ Muh. Stud., I, S., 64.

٢ اللسان (٩/٥٤) (بيروت) ، (وفي حديث ابن عباس : وجدنا ولاية المطيبي خيرا من ولاية الأحلافي ٠)يريد أبا بكر وعمر ٠ يريد أن أبا بكر كان من المطيبين ، وعمر من الأحلاف ٠

٣ اللسان (٩/٥٤) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، المعارف (٦١٦) ٠

٤ اليعقوبي (١/٢١٢) ، البلدان (٢/٢٢٥) ٠

٥ الاشتقاق (ص ١١١) ، اللسان (١/٤٠٣) ٠

٦ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٩) ، شرح ديوان زهير ، لثعلب (١٥) ، اللسان (٩/٥٤) ٠

٧ اللسان (٩/٥٥) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، الصحاح (٤/١٣٤٦) ٠

الإسلام وعند العرب في الإسلام كذلك ، على الرغم من الحديث المنسوب الى الرسول الذي يناهض الحلف : (لا حلف في الإسلام) [1] . وقد أدرك الرسول ، ولا شك ، ضررها بالمجتمع العربي إذ كانت من أسباب التفريق ، فحلّ الأحلاف وأحل الدولة مكانها ، وحتم على القبائل إطاعة الرسول أو من يقوم مقامه من المسلمين .

وأما ما رواه (قيس بن عاصم) من ان الرسول قال : (لا حلف في الإسلام ، ولكن تمسكوا بحلف الجاهلية) ، فالظاهر انه قصد بذلك الجوار [2] . وقد أكد الإسلام احترام الجار ، ووجوب الدفاع عنه ، كما أيد الأحلاف الجاهلية التي تدعو الى الخير ونصرة الحق . أما الممنوع ، فما خالف حكم الاسلام ، ودعا الى الهلاك والضرر والفتن والقتال ، فذلك الذي ورد النهي عنه في الاسلام [3] .

واستعمل الجاهليون لفظة (حبل) و (حبال) للعهود والمواثيق . فـ (الحبل) هو العهد والذمة والأمان ، وهو مثل الجوار . وكان من عادة العرب في الجاهلية ان يخيف بعضهم بعضاً ، فكان الرجل إذا أراد سفراً أخذ عهداً من سيّد كل قبيلة ، فيأمن به ما دام في تلك القبيلة ، حتى ينتهي الى الأخرى ، فيأخذ مثل ذلك أيضاً ، يريد به الأمان . فهذا حبل الجوار ، أي ما دام مجاوراً أرضه . وفي هذا المعنى جاء قول الأعشى :

واذا تجوّزها حبال قبيلة أخذت من الأخرى اليك حبالها

وجاء في الحديث : (بيننا وبين القوم حبال) ، أي عهود ومواثيق . وفي هذا المعنى ، أي العهد والذمة والأمان ، جاء :

ما زلت معتصماً بحبل منكُمُ مَن حَلّ ساحتكم بأسبابٍ ، نجا [4]

١ تاج العروس (٦/٧٥) ، النهاية في غريب الحديث (١/٢٤٩) ، اللسان (٩/٥٣) ، الكامل ، لابن الأثير (١/٢٦٧) .
٢ الأغاني (١٢/١٥١) .
٣ اللسان (١/٥٤) ، النهاية في عريب الحديث (٣/١٤٣) .
٤ اللسان (١١/١٣٤ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٤/٣٠) ، روح المعاني ، للألوسي (٤/١٧) ، تفسير الرازى (٨/١٧٣) ، جامع احكام القرآن ، للقرطبى (٤/١٥٨) .

وقد استفادت قريش من (الحبال) التي عقدتها بينها وبين القبائل ، إذ أمنت بذلك على تجارتها ، وقد كانت واسعة تشمل كل جزيرة العرب ، وتتصل بالعراق وببلاد الشأم ، فصارت قوافلها العامة والخاصة تمرّ بأمن وسلام من كل مكان بفضل حنكة سادة مكة وذكائهم في تأليف قلوب سادات القبائل وربطهم بهم بعهود ومواثيق . جعلت التحرش بقوافلهم من الأمور الصعبة ، واذا طمع بها طامع أدبه سيد قبيلته الذي يخضع له .

ولقريش ولغيرها أحلاف مع أسر وأفراد . فقد كان لـ (بني دارم) من تميم حلف مع (بني عبد مناف) من قريش . وكان لـ (عكاشة بن محصن) حلف مع رجال من مكة . روي ان رسول الله قال : (منا خير فارس في العرب : عكاشة بن محصن . فقال ضرار بن الأزور الأسدي ذاك رجل منا يا رسول الله . قال : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف القوم منهم . كما جعل ابن أخت القوم منهم)[1] . وكان للأخنس بن شريق ، وهو رجل من ثقيف ، وكذلك (يعلى بن منبه) ، وهو رجل من (بلعدويّة) ، وكذلك (خالد ابن عرفطة) وهو رجل من عذرة حلف مع قريش ، فصاروا منها بالحلف . ذلك لأن (حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم)[2] .

وقد يقع أسير في أسر آسر ، فلا يتمكن من فداء نفسه ، ثم يطلب من آسره ان يكون حليفاً له ، فإذا قبل آسره منه ذلك ، صار في حلفه وفي حلف قبيلته . أي يكون ذلك الشخص حليفاً لقبيلة آسره . ويكون حكمه بالنسبة للإرث ، إنه يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها . أما إذا قتل ، فديته نصف دية الصريح[3] . وكان (معيقيب بن أبي فاطمة) حليفاً لبني أسد ، وكان يكتب مغانم الرسول[4] .

التخالع :

واذا أراد المتحالفون انهاء حلفهم وعهدهم الذي تعاهدوا عليه بينهم ، أعلنوا

---

١ مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (١٣/١) ، (بتحقيق عبد السلام هارون) .
٢ مناقب الترك (١٢/١ وما بعدها) .
٣ تاريخ التمدن الاسلامي (٢٣/٤) .
٤ الجهشياري (١٢) ، (القاهرة ١٩٣٨) .

عن ذلك ، وكتبوا به كتاباً ، ليكون مشعراً بتخالعهم ، وانهم نقضوا الحلف الذي كان بينهم ، فتسقط بذلك كل مسؤولية تولدت عن الوفـاء بذلك الحلف أو العهد ، فلا يطالب طرفٌ الطرف الثاني بالوفاء به . ورد في كتب اللغة : وتخالعوا : نقضوا الحلف والعهد بينهم وتناكثوا[1] .

ويكون التخالع باتفاق الطرفين عليه ، وبرضائهما عنه . أما إذا نكل طرف واحد بتنفيذ ما جاء في الحلف، أو أعلن عن انسحابه منه ساعة الحاجة اليه، كأن يتبرأ منه في وقت يكون فيه حليفه في شدة وضيق ، عدّ ذلك غدراً وخيانة ، لتلكؤه عن تنفيذ ما اتفق عليه . وليس الغدر من سجايا إنسان شريف .

وقد كان للحلف أثر مهم في تلاحم الأنساب وفي انفكاكها وتجزئها ، وطالما نقرأ في الكتب عبارات تشير الى تلاحم الأنساب وتداخلها بسبب العوامل المتقدمة . مثل : (ومنهم سليم بن عباد . كان حليفاً لأبـي طالب . وولده اليوم يدعون في آل أبـي طالب)[2] .

والأحلاف بنوعيها أحلاف القبائل وأحلاف الأفراد قد لا تدوم أمداً طويلاً ، ولا سيما أحلاف القبائل ، فالقبائل في تنقل وحركة ، ومصالحها وضرورات الحياة عندها متغيرة غير ثابتة ، وهي قلقة غير مستقرة . وأحلاف تقوم على مثل هذه الأسس لا يمكن ان تدوم وتعمر ، ولا سيما إذا ما تشتت شمل الحلف ، وتنقلت قبائله ، وتحولت الى أماكن بعيدة . فتضعف الروابط والصلات التي تجمـع بين شملها ، ثم ترخى وتزول ولا يبقى من الحلف غير الاسم . تزول بغير تخالع ولا تقاتل أو تباغض ، تزول لأن الظروف التي دعت الى عقدها ، تكون قد زالت وتغيرت ولأن التباعد قد بَرّدَ من نار الحب التي كانت قد قاربت بين القلوب فجعلها تنسى ذلك الحب ، ولا تذكره إلا عندما تتذكره .

اخاء القبائـل :

وإخاء القبائل ، هو إخاء اصطناعي ، وان عدّه أهل الأنساب والأخبار اخاءً

---

١ اللسان (٧٦/٨ ح ، (صادر) ، (خلع) ، تاج العروس (٣٢٢/٥) ، (خلع) .
٢ الاشتقاق (١٨٩) .

حقيقياً من اقتران والد بأم . فنحن نعلم في هذا اليوم ومن قراءاتنا للكتابات الجاهلية ، ومن نقدنا وغربلتنا لأخبار أهل الأخبار ولروايات أهل الأنساب ، ان التآخي ، هو في الواقع جوار ، ونزول قبيلة بجوار قبيلة أخرى ، أو نتيجة حلف تآخت قبائله واتحدت ، فعد تآخيها تآخياً بالمعنى المفهوم من الاخوة . أو حاصل تضخم قبيلة لم تعد أرضها يتسع صدرها لها ، فاضطرت عشائرها وبطونها على التنقل والارتحال الى مواطن جديدة ، وعدت نفسها لذلك من نسل تلك القبيلة التي كانت تعيش معها ، فعدّ ذلك أهل الأنساب نسباً حقيقياً بالمعنى المفهوم من النسب عندنا .

وقد تضطر بعض القبائل على ترك مواطنها والارتحال عنها ، بسبب غزو قبيلة أقوى منها لها ، فتنزل بين قبيلة جديدة وتتحالف معها ، أو تقهرها على النزول بأرضها . وفي كتب أهل الأنساب والأخبار أمثلة عديدة على ذلك . فتتداخل أنسابها ، ويتولد من ذلك نسب جديد . من ذلك ، ما يرويه أهل الأنساب عن (عك) وهو أخو (معد) على زعم أهل النسب ، فلما حارب (بختنصر) (عدنان) ، والد (معدّ) و (عك) ، هاجر أبناء (عك) نحو الجنوب فراراً من (بختنصر) وأقاموا في اليمن ، فدخل نسبهم في اليمن ، وعدّهم بعض أهل الأنساب من قحطان ، ومن ذلك قضاعة وقبائل أخرى عديدة .

الهجن :

وتزوج العرب من الإماء ، وذلك ان من الإماء من كانت جميلة الصورة حلوة المنظر والكلام ، ولهذا تزوّج ساداتهن منهن ، فولد لهم نسل ، قيل للواحد منه الهجين . والهجين : ولد العربي من غير العربية ، قيل له ذلك لأن الغالب على ألوان العرب الأدمة [1] ، ويقال للزواج الذي يقع بين عربي وأعجمية : (مهاجنة) . وقد عابته العرب وعدت الهجين دون العربيّ الصريح ، لوجود دم أعجميّ فيه . والأعاجم هم ، مهما كانوا عليه من منزلة ، دون العرب في نظر العرب [2] .

ويظهر من تعريف علماء اللغة للفظة (الهجين) ، انها خصصت بمن يولد

١ اللسان (أ/د/م) ، (١٣/٤٣١) .
٢ اللسان (أ/د/م) ، (١٣/٤٣١) .

من أم أعجمية بيضاء ، كأن تكون الأم رومية أو فارسية . فقد ذكروا ان العرب أطلقت على أولادهـــا من العجميات اللائي يغلب على ألوانهـــن البياض ، الهجن والهجناء ، لغلبة البياض على ألوانهم وإشباههم أمهاتهم ، فيجب ان تكون الأمهات الأعجميات إذنْ من ذوات البشرة البيضاء ، تمييزاً لهن عن ذوات البشرة السوداء من الرقيق المستورد من إفريقية . ويذكر علماء اللغة أيضاً ان العرب قالت للعجم (الحمراء) و (رفاب المزاود) ، لغلبة البياض على ألوانهم ، ويقولون لمن علا لونه البياض : أحمر [1] . وقـــد هجا (حسان بن ثابت) (سعد بن أبـي سرح) بأن اتهمه بأنه عبـــد هجين ، أحمر اللون فاقع ، موتر عِلْباءِ القفا ، قَطَطٌ ، جعد [2] .

والهجنة من الكلام : ما يعيبك [3] . وقد جاء هذا المعنى من الفساد الذي قد يظهر في كلام الهجن ، بسبب عجمة الأمهات وعدم اتقانهن العربية . ولما كان الخطأ في اللغة عيباً ، عدت الهجنة من الأمور المعيبة .

ويطلق العرب لفظة (رجل مولَّد) على الرجل إذا كان عربياً غير محض . و (المولدة) الجارية المولودة بين العرب ، وقيل : تُولَّد بين العرب وتنشأ مع أولادهم ويغذونها غذاء الولد ويعلمونها من الأدب مثل ما يعلمون أولادهـــم . و (التليد) التي ولدت ببلاد العجم وحُملت فنشأت ببلاد العرب ، وقيـــل : هي التي تولد في ملك قوم وعندهم أبوها [4] .

الجوار :

وللجوار حرمة كبيرة عند الجاهليين . فإذا استجار شخص بشخص آخـــر ، وقبل ذلك الشخص ان يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايته ، وحق على المجار الدفاع عن مجيره ، والذبّ عنه . وإلا عدّ ناقصاً للعهد ، ناكثاً للوعد ، مخالفاً

---

١ اللسان (٤٣١/١٣) ، الأغاني (٧٣/١٦) .
٢ أعبد هجين أحمر اللون فاقع موتر علبـــاء القفا قطط جـــعد
ديوان حسان (ص ١٤٩) (البرقوقي) .
٣ اللسان (هـ/ج/ن) ، (٤٣١/١٣) .
٤ اللسان (ولد) ، (٤٦٧/٣ وما بعدها) .

لحق الجوار . وعلى القبائل استجارة من يستجير بها ، والدفاع عنه دفاعهـا عن أبنائها . ويقال للذي يستجير بك (جار) . والجار الذي أجرته من ان يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك . وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه[1] .

العصبيـــة :

وأساس النظام القبلي هو العصبية ، العصبية للأهل والعشيرة وسائر متفرعات الشعب أو الجذم أو القبيلة ، أو العشيرة . ومن شروطها ان يدعو الرجـل الى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين ، وليس له ان يتساءل : أهو ظالم أم مظلوم[2] ، وهي ضرورية للقبائل ، لانها لا تستطيع ان تدافع عن نفسها إلا اذا كانت ذات عصبية ونسب ، وبذلك تشتد شوكتها ، ويخشى جانبها ، كما انه لا يمكن وقوع العدوان على أحد مع وجود العصبية . وتقوم العصبية على النسب ، وهي تختلف لذلك باختلاف درجات تقارب الأنساب ، ولذلك نجد عصبيات مختلفة[3] . وتشمل العصبية الصرحاء والموالي والجيران .

وتشمل العصبية أهل المدر كذلك ، فأهل المدر وإن تحضروا واستقروا واقاموا في بيوت ثابتة ، إلا ان نظامهـم الاجتماعي والسياسي بني على العصبية أيضاً ، فتألفت المدن والقرى من (شعاب) ، وتكونت الشعاب من جماعات بينها روابط دم ووشائج قرابة . والشعْب هو وحدة ، وهو الذي يأخـذ بحق المظلوم من الظالم ، وبظلامة من تقع عليه ظلامة . وغالباً ما تكون بـين الشعاب المتجاورة قرابة وصلة رحم ، وإذا حدث حادث لهذه الشعاب ، هبّت للنظر فيه واتخـاذ ما ينبغي اتخاذه من موقف ، ثم تكون عصبية الشعاب للمدينة أو للقريـة ثم إن سكان هذه المدن وإن تحضروا واستقروا كانوا يُرجعون أنفسهم كأهل الوبر الى

---

١ اللسان (٤/١٥٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/١١١ وما بعدها) ، (جار) .

٢ (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ، الأمثال (٢٢) ، لسان العرب (١/٦٠٦) ، قاموس المحيط (٢/١٤٠٥) ، (للبستاني) .

٣ راجع بحث العصبية في مقدمه ابن خلدون (ص ١٠٨ فما بعدها) ، الحيـوان (١/١٦٦) .

قبائل وعشائر . فهم اذن أعراب من حيث التعصب والأخذ بالعصبية ، واختلافهم عن الاعراب ، هو في استقرارهم وفي عيشهم في محيط ضيق محدود وفي خطط مثبتة مرسومة .

وفي المعنى المتقدم من العصبية ، ورد قول الشاعر :

اذا أنا لم أنصر أخي وهو ظـــالم على القوم ، لم أنصر أخي حين يظلَم

فالعصبية : أن يدعو الرجل عصبته الى نصرته . وهي (النصرة على ذوي القربى وأهل الارحام ، أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة) [1] .

وفي هذا المعنى أيضاً ورد قول الشاعر ، قريط بن أنيف ، حيث يقول :

قـــوم اذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طـــاروا اليه زُرافات ووحدانا
لا يسألون أخـــاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا [2]

فهو يهبّ اذا سمع نداء العصبية حاملاً سيفه أو رمحه أو أي سلاح يملكه ، وبغير سلاح ، لينصر أخاه : لا يسأله : لِمَ ؟ فليس من العصبية والاخوة القبلية أن تسأل أخاك عمّا وقع له ، بل عليك تلبية ندائه وتقديم العون له ، معتدياً كان أم معتدى عليه .

وللعصبية صلة كبيرة بالمسؤولية وبالعقوبات . فعلى درجة العصبية تقع المسؤولية . فأقرب الناس الى الجاني ، يكون أول من يتناوله الأخذ بالثأر ، ثم الأبعد فالأبعد . ومن هنا كان الطالبون للثأر يبدأون بالجاني أولاً . فان فاتهم أخذوا أقرب الناس رحماً به ، فان فاتهم أخذوا الذي يليه أو من هو في درجته وهكذا .

وكلما بعدت العصبية عن دم الأبوين ، خفت حدتها ، وطبيعي ألا تكون العصبية الى القبيلة مثل العصبية الى الاهل في الشدة . ولهذا فان العصبية ترتبط بدرجة الدم والتحام النسب ارتباطاً طردياً . وهذا شيء طبيعي ، وهو حاصل هذه الحياة .

ولا تمنع العصبية بطون القبيلة من مخاصمة بعضها بعضاً ومن التقاتل فيما بينها ، بسبب تغلب المصالح الشخصية على عاطفة (العصبية) . ومتى اصطدمت المصالح

١ اللسان (٦٠٦/١) ، (عصب) ، ابن خلدون ، مقدمة (١٣٨) .
٢ المرزوقي ، شرح الحماسة (٢٧/١ وما بعدها) .

بالعواطف ، تغلبت المصلحة عليها . فالمصلحة حاجة وواقع عمليّ ، والعصبية شعور ، والحاجة أقوى منها . ولهذا نجد المصلحة تدفع بطون القبيلة المتخاصمة على الاستعانة ببطون غريبة عنها ، أو بقبائل بعيدة عنها في النسب لمقارعتها أحواتها وللتغلب عليها ، مدفوعة الى ذلك بدافع المصلحة وغريزة المحافظة على الحياة . فتقاتلت بطون من طيء وتحاربت فيما بينها ، وتقاتلت قبائل بكر ووائل مع وجود النسب والدم ، وتقاتل بنو جعفر والضباب . [1] تقاتلت لظهور مصالح تغلبت على العصبية وعلى الشعور بالاخوة . ومتى ظهرت المصالح المادية عجزت عاطفة النسب والعصبية من التغلب عليها .

وجرثومة العصبية ، العصبية للدم ، وأقرب دم الى انسان هو دم أسرته وعلى رأسها الأبوان والاخوة والاخوات ثم الأبعد فالأبعد ، حتى تصل الى العصبية للقبيلة . ولهذا تكون شدة العصبية وقوتها تابعة لدرجة قرب الدم والنسب وبعدهما . فاذا ما حلّ حادث بإنسان ، فعلى أقرب الناس دماً اليه أن يهب لاسعافه والأخذ بالثأر ممن ألحق الأذى بقريبه . ولهذا صارت درجات العصبية متفاوتة بحسب تفاوت الدم ومنازل النسب .

وآخر مرحلة من مراحل العصبية ، العصبية للقبيلة ، والعصبية للحلف ، أو العصبية للنسب الاكبر ، وذلك في حالة تكتل القبائل وتخاصمها كتلاً . وتكون العصبية للقبيلة أقوى من العصبية للحلف أو النسب الاكبر مثل معدّ أو نزار أو حمير أو ما شاكل ذلك ، وذلك لشعور أبناء القبيلة بأن الرابطة التي تربطهم هي رابطة الدم ، والدم أبرز وأظهر في القبيلة من رابطة الحلف أو رابطة النسب الاكبر ، ولا سيما رابطة الحلف ، فانها رابطة مصلحة في الغالب لا رابطة دم ، والشعور بروابط المصالح لا يكون مثل الشعور بروابط الدم .

وتدفع العصبية للحلف ، قبائل الحلف على التناصر والتآزر والتكتل ، والوفاء بالعهد ، والا لم تكن للمتحالفين فائدة ما من الحلف ، وعلى أفراد الحلف أن ينصر بعضهم بعضاً ، وعلى قبائل الحلف أن يتآزروا في دفع الديات أيضاً . وبالمطالبة بديات من يُقتل من قبائل الحالف ، اذا عجز أهل القتيل أو قبيلة القاتل عن الأخذ بحقه .

---

١ ابن الأثير (١/٣٨٨) ، البلدان (٨/٤٥٠) ، العمدة (٢٠٠ وما بعدها) .

وتشمل العصبية كل منتمٍ الى القبيلة ، تشمل أحرارها أي أبناءها الخلّص الصرحاء ، وتشمل الموالي أي الرقيق وكل مملوك تابع لحرّ ، كما تشمل أهل الولاء والجوار . فالعصبية لا تعرف تفريقاً في هذه الناحية ، فعلى كل من ينتمي الى قبيلة ويحمل اسمها أن يتعصب لقبيلته ويذود عنها ، وان كان عبداً مملوكاً ، ذلك قانون وأمر محتوم ، لا جدال فيه ولا نقاش ، من حيث وجود حقوق أو عدم وجودها ، ومن حيث ان اصل هذا حرّ وأصل هذا عبد . لأن ما يصيب الحر يصيب المولى والجار ، وما يصيب المولى والجار يؤثر على الحر ، لأنه مسؤول عن مولاه وعن جاره بحكم التملك والجوار ، وعلى الرقيق والجار تبعة الدفاع عن الصريح وعن القبيلة التي ينتمي اليها الصريح .

وتلزم العصبية أبناء القبيلة بوجوب تحمل التبعة والقيام بواجبها وتلبية ندائهـــا واجابة الصارخ بالعصبية ، ليس له ان يسأل عن السبب ، ولا ان يعتذر عن تلبية النداء ، وانما عليه ان يعمل بقول الشاعر :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا [1]

واذا قُتل قتيل لزم الأخذ بثأره ، واذا كان القتيل سيد قبيلة وجب على القبيلة الأخذ بثأر سيدها ، وهيهات ان تسكت عن قتله ، وعلى كل فرد من افراد تلك القبيلة واجب الأخذ بثأره ممن قتله .

ويفرض قانون العصبية على القبيلة تحمل التبعة ، اذ جعلها تبعة جماعية . فاذا جنى رجل جناية قتل ، تكون قبيلته مسؤولة عن جنايته ، وعليها تقع تبعة قتل القاتل اذا تعذر الأخذ بالثأر منه او تعذر تسليم القبيلة له ، كما يقع على القبيلة دفع الدية اذا عجز القاتل او آله عن دفعها ، وذلك لتوزيعها على المتمكنين من افرادها ، او بقيام ساداتها او سيدها بدفعها كاملة او بدفع ما تبقى منها .

ومن هنا خضعت فردية الاعرابي المتطرفة لقانون الجماعة ، اي لسلطان العصبية فصار واجباً عليه ان يضع نفسه تحت إمرة القبيلة ، وذلك بتلبية ندائها حين يبلغه ذلك النداء ، وتقديم نفسه طائعاً مختاراً لإمرة القبيلة ليدافع عنها او ليشترك معها في الغزو ، ليس له ان يفرّ او يعتزل او يتلكأ ، فهذا واجب مفروض عليه ، اذا خالفه خالف جماعته وخسر حمايتها له ، وصار مَسْبُوباً من الناس .

---

١ حماسة أبي تمام (١٦/١) .

الحمية :

ومن مظاهر العصبية : (الحميّة) وهي الأنفة والغيرة والغضب ، وذلك أن الشخص كان يأنف من عمل قبيح ، وتأخذه حميته من أن يفعل شيئاً يعاب ويعار عليه . [1] وهو يغضب وتأخذه حميته من أن يترك سنة آبائه وأجداده . وقد نهى الاسلام عن الحمية ، واعتبرها من أخلاق أهل الجاهلية والكفر . ونزل الوحي يندد بها : (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حميّة الجاهلية . فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى) . [2] وذلك حين جعل (سهيل بن عمرو) في قلبه الحمية فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين الرسول والمشركين بسم الله الرحمن الرحيم ، وأن يكتب فيه محمد رسول الله ، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله مكة عـــامه ذلك . [3] فوضع الاسلام (السكينة) في موضع حمية الجاهلية .

و (النعرة) ، وهي الصياح ومناداة القوم بشعارهم طلباً للغوث والاستعانة ، أو لإهاجتهم ولتجمعهم في الحرب . ومن هنا ورد في الحديث (ما كانت فتنة الا نعر فيها فلان) . أي نهض فيها . وفي حديث الحسن : كلما نعر بهم ناعر اتبعوه ، أي ناهض يدعوهم الى الفتنة ويصيح بهم اليها . [4] ولما كان العرب اصحاب حس مرهف ، وعاطفة ذات حساسية شديدة ، لذلك لعبت النعرات فيهم دوراً خطيراً في اثارة الفتن بينهم . وكانت سبباً لحدوث حوادث مؤسفة عنـــد الحضر وعند الاعراب .

واذا أصيب شخص بضيم ، او نزلت به اهانة أو نازلة ، نادى قومه بشعائر العصبية ، وعلى قومه تلبيتـــه ونصرته . وقد ينادي الانسان شخصاً طالباً منه العون والنصرة ، فتلزمه مساعدته كأن ينادي (يا لفلان) ، وهو شعار يستعمل عند التحزب والتعصب ، ينادي به بصوت عال مسموع ، عند بيت المنادى او في موضع عام او في مكان مرتفع ليصل الصوت الى ابعد مكان . [5]

---

١ تاج العروس (٩٩/١٠) ، (حمى) ، اللسان (٢١٦/١٨ وما بعدها) ،
٢ سورة الفتح ، رقم ٤٨ ، الآية ٢٦ .
٣ تفسير الطبرى (٦٥/٢٦) ، تفسير القرطبى (٢٨٨/١٦ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥٧٧/٣) ، (نعر) .
٥ الروض الأنف (٩٣/١ وما بعدها) ، الأغاني (٧١/١٥) ، شرح ديوان الحماسة (١٦٨/١) ،

Muh. Stud , I, S.. 61 Kinship, P. 44.

وللقبائل شعار ينـــادون به عند العصبية ، فاذا وقع على احد من اهل يثرب اعتداء وأراد المؤآزرة والنصرة ، نادى : يا لَآل قَيْلة ، واذا كان من تميم نادى : يا لتَميم ، وهكذا ، فيهرع من يكون حاضراً ساعة النداء لينصر صاحبه الذي هو من قومه وليـــؤآزره . وتعد التلبية من اهم مفاخر الرجال والقبائل وواجباً من الواجبات . [1]

ويتداعى الناس الى العصبية في القتال . واذا ارادوا اهاجة قومهم نادوا بالعصبية . وقد وقع خلاف بين المهاجرين والانصار في المدينة والرسول فيها . فقال قوم : يا لَلأنصار . وقال قوم يا لَلمهاجرين . فسمع النبي تداعيهم وصراخهم ، فقال لهم : دعوها فإنها منتنة . ودعاها بـ (دعوى الجاهلية) . (وفي الحديث : ما بأل دعوى الجاهلية ؟ هو قولهم : يا لفلان كانوا يدعون بعضهم بعضاً عند الأمر الشديد) . [2]

الاسلام والعصبية :

وقد تركت (العصبية) اثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل الاسلام . وقد كانت اذ ذاك ضرورة من الضرورات اللازمة بالنسبة الى الحياة في الجاهلية ، لأنها الحائل الذي يحول بين الفرد وبين الاعتداء عليه ، والرادع الذي يمنع الصعاليك والخلعاء والمستهترين بالسنن من التطاول على حقوق الناس ، اذ لا حكومة قوية رادعة ولا هيئة حاكمة في استطاعتها الهيمنة على البوادي وعلى الإعراب المتنقلين . بل هنالك قبائل متناحرة وامارات متنافرة ، اذ ارتكب انسان جريمة في ارضها ، وفرّ الى ارض اخرى ، نجا بنفسه وأمن على حياته هناك ، ولكنه كان يخشى من شيء واحد ، لم يكن لأحد فيه عليه سلطان ، هو (العصبية) وسة (الأخذ بالثأر) ، وهي العصبية في ثوبها العملي . كان يخشى من سلطان الأخذ بالثأر ، حيث يتعقبه اهل الثأر ، فلا يتركون الجاني يهنأ بالحياة ولو بعد مضي عشرات من السنين ، حتى يُقتل او يقتل اقرب الناس اليه . وبذلك صارت العصبية ضرورة من ضرورات الحياة ، بالنسبة لسكان جزيرة العرب ، لحمايتهم وصيانتهم من عبث العابثين .

---

١ اللسان (٨١/٦) ، ابن هشام (٢٨/٤) ، الأغاني (٧١/١٥) ، (يالطيء) ، شرح ديوان الحماسة (١٦٨/١) .

٢ اللسان (دعا) ، (٢٥٩/١٤) .

وقد أدرك الإسلام ما في العصبية من أخطار على المجتمع ، ولما في الأخذ بالثأر من ضرر على الأمة ، إذْ يحول المجتمع الى مجتمع ذئاب ، يأخذ كل ذئب بحقه من غريمه ، فنهى عنها ، وحوّل العصبية الجاهلية الى عصبية إسلامية . بأن يتعصب المسلم لأهل عصبيته ، ولدينه ، فيدافع عنه ويقاتل في سبيله وفي سبيل رفع الظلم عمن وقع الظلم عليه بمساعدة من بيدهم الأمور على إحقاق الحق وإظهار حق المظلوم لديهم . وحرم العصبية الجاهلية المعروفة ، فورد في الحديث : (ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية)[1] . ومنع الأخذ بالثأر ، إذْ جعل حقه من حقوق أولي الأمر ، ومن بيده سلطان المسلمين ومن ينيبونه عنهم للقضاء بين الناس .

من أعراف العرب :

وللأعراب بصورة خاصة أعراف أوجبت الطبيعة عليهم اطاعتها والعمل بها لأن في تنفيذها مصلحة الجميع ، وفي الخروج عليها ضرراً بالغاً . من ذلك وجوب الأخذ بالثأر ، والبحث عن القاتل لقتله مهما طال الزمن ، لان (الدم لا يغسل إلا بالدم) . وقد أملت طبيعة المحيط الذي يعيش فيه العرب عليهم هذا العرف . فليس في البادية مَن يحول بين قتل الناس بعضهم بعضاً إلا الأخذ بالثأر ، وقيام أهل القتيل والعصبية بالأخذ بدمه . ولولا الخوف من الأخذ بالثأر لَعَمّ القتل الحياة : فالحياة في البوادي وفي أكثر أنحاء جزيرة العرب شدة ومحنة وفقر وقسوة . وليس في البادية أي خير كان مما يستمتع به أهل الحواضر ، ولا سيما تلك التي امتازت بوفرة الماء فيها وبحسن جوّها واعتداله . لذلك صارت حياة الأعراب ضنكاً في العيش وفقراً مُرّاً ، وصار كل شيء تقع عليه عين الاعرابي ذا قيمة وفائدة عنده مهما كان تافهاً ، فيريد الاستيلاء عليه وسلبه من صاحبه ، لانه محتاج اليه وفقير ، ويرى ان من حقه ان يستولي على كل ما يراه عند من هو أضعف منه ، وان أدى ذلك الى ازهاق حيانه . ولكن الطبيعة التي علمت

١ اللسان (١/٦٠٦) ، (عصب) .
ونوقد ناركم شررا ويرفع لكم في كل مجمعة لواء
المفضليات (ص ٥٦) ، تاج العروس (٣/٤٤٠) ، بلوغ الارب (٢/١٦٢) .

الاعرابي هذا المنطق ودرّسته هـذا الدرس درّسته في الوقت نفسه ان الاستهتار بالسلب والنهب والقتل ، يؤذيه ويهلكه ، وانه لا بُدَّ له من الحدّ من غلوائـه ومن أعدائه على غيره ، ووضعت له حدوداً وقيوداً من طبيعة هـذه الحياة التي يحياها . منها عرف (العصبية) ، والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من أعراف أملتها الطبيعة على سكان هذه البوادي ، وصارت سناً متبعة بعضُهـا يتعلق بالأعراف التي تخص داخل القبيلة ، وبعضها يتعلق بالاعراف التي تتعلق بالقبائل المتحالفة ، ومنها ما يتعلق بالاعراف التي تكون بين القبائل المتعادية .

والقاعدة عنـد العرب ان الدم — كما سبق ان قلت — لا يغسل إلا بالدم ، وان تعويض الدم بمال يرضى عنه (آل) القتيل ، منقصة وذلة لا يقبل بها إلا ضعاف النفوس . أما أهل البيوت والحمولة ، فلا يقبلون إلا بالقصاص وبأخـذ الثأر ، وبقتل رجل كفء يكافىء المقتول في المنزلة والدرجة والمكانة ، فإذا كان القتيل سيد قبيلة والقاتل من عامّة الناس أو من عبيدهم ، أبوا الاكتفاء بقتله به اقتصاصاً منه ، إذْ انه دون القتيل في المنزلة والشرف والمكانة ، بل لا بـد عندهم من قتل سيد من سادات القبيلة التي يكون منها القاتل ، على ان يكون مكافئاً للقتيل ، حتى يغسل الدم . وان كان ذلك السيد بعيداً عن القاتل ولا صلة له به . فالسيّد سيّد ولا يغسل دمه إلا بدم سيد مثله . ولعلّ الطبيعة وضعت لهم هـذه السنة لتأديب سادات القبيلة أو غيرهم ، ممن قد يحرضون العبيد أو غيرهم من السوقة على قتل خصومهم وأعدائهم ، فاذا عرفوا ان أهل القتيل سينتقمون منهم بقتلهم ، حاربوا سفكة الدماء من أتباعهم ولاحقوهم ، وبذلك ينظفون المجتمع منهـم ، ويخلصون الناس من سفاكي الدماء .

والأصل في القتل : القصاص ، وقتل القاتل بدل القتيل . فيطالب أهل المقتول بالقوَد وهو قتل النفس بالنفس . وقد ورد ذكره في الحديث ، إذْ جاء : (من قتل عمداً ، فهو قود)[1] . واذا لم يتم القود ، أو لم يحدث التراضي على الدية ، أو اذا فرّ القاتل ، فلا بد من الأخذ بالثأر . ولا يستقر لأهل القتيل قرار الا بعد الأخذ بثأر القتيل . وقـد يتركون الخمر والطيّبات ولا يقربون النساء طيلة طلبهم للثأر . وقد يلبسون ألبسة الحزن ويجزوّن شعورهم ، ولا يأكلون لحماً ،

١ تاج العروس (٢/٤٧٨) ، (قود) .

ولا يميلون الى ضحك ولا سماع دعابة ولا الى الاستراحة ، حتى ينالوا منالهم من الأخذ بثأر القتيل . كالذي روي في قصة طلب امرىء القيس الكندي ثأر أبيه من بني أسد . وقد آلى على نفسه ان لا يمس رأسه غسل ولا يشرب خمراً حتى يثأر بأبيه . فلما ظفر ببني أسد قتلتهم وأدرك ثأره حلّ له ما حرم على نفسه [1] . وكالذي روي في قصة طلب قيس بن الخطيم ثأر أبيه [2] . أو عن (يوم الأقطانين) ، إذ أقسموا ألا يغسلوا أجسامهم حتى يأخذوا بثأرهم [3] .

وقد يستغرق طلب الأخذ بالثأر عشرات السنين ، لا يكلّ في خلال هذه المدة أصحاب القتيل عن إدراك الثأر . وينظر الى الذين يتوانون عن ادراك الثأر نظرة ازدراء واحتقار ، وقد يلحق بهم وبنسلهم العار من هذا الاهمال ، وقد يلحق ذلك العشيرة أو القبيلة برمتها ويكون لها سُبّة ، اذا كان القتيل من أشرافها أو من سادتها . لهذا لا يتهاون أهل القتيل عن تتبع آثار القاتل أو أقربائه أو أفراد قبيلته التي ينتمي اليها لغسل هذا العار ، فإن الدم لا يغسل الا بالدم . ومتى أدرك أهل الثأر ثأرهم ، ووجدوا المقتول كفؤاً لدم القتيل ورضوا عن ذلك ، قالوا لهذا النوع من الثأر (الثأر المنيم) [4] . وقد عرفه بعضهم : أنه الذي اذا أصابه الطالب رضي به فنام بعده . وقيل هو الذي يكون كفؤاً لدم وليّك . ويقال أدرك فلان ثأراً منيّماً ، اذا قتل نبيلاً فيه وفاءٌ لطلبته ، وكذلك أصاب الثأر المنيم . قال أبو جندب الهذلي :

دعوا مولى نفاثة ثم قالوا : لعلك لست بالثأر المنيم

أي لست بالذي ينيم صاحبه ، أي ان قتلتك لم أنم حتى أقتل غيرك ، أي لست بالكفؤ فأنام بعد قتلك [5] .

ومتى أخذ بثأر القتيل بكته النساء . لأن من عادة نساء الجاهليين ألا يبكين المقتول

١ حلت له من بعد تحريم لها أو أن يمس الرأس منه عسولا
شرح ديوان امرىء القيس (ص ١٥٦) .
٢ شعر قيس بن الخطيم (١ ، ١٥) ، بلوغ الأرب (٣/٢٤) .
٣ الفاخر (٢٥٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٧/٧٠) .
٤ اللسان (٥/١٦٧) ، المعاني الكبير (٢/١٠١٨) .
٥ تاج العروس (٣/٧٢) ، (ثأر) .

إلا ان يدرك بثأره ، واذا أُدرك بثأره ، بكينه [1] .

ويشبه الثأر ان يكون عقيدة من العقائد الدينية عند العرب . لما يكتنفه أحياناً من (حلف) و (قسم) بوجوب الأخذ بالثأر . ولما تحوط بـه من شعائر تحافظ عليها ، من أخذ على نفسه القسم بوجوب الأخذ بالثأر . وهي من شعائر الدين عند الجاهليين . ولا يتركها حتى يبر بقسمه [2] .

واذا عجز الإنسان عن أخذ ثأره بنفسه ، استغاث بغـيره لينجده على ثأره . وعلى من قبل نداء الاستغاثة ووافق على النجدة ، مساعدة المستغيث في الأخـذ بالثأر وعدم تركه حتى يأخذ بثأره من طلبته .

وقد لعب الأخذ بالثأر دوراً خطيراً في الاسلام كذلك . ولا سيما في الأحداث السياسية . فلما قتل (عثمان) ارتفع نداء : يا لثارات عثمان . قال حسان :

لتسمعن وشيكاً في ديارهـم الله أكبر يـا ثارات عثمانـا

ومن ذلك قولهم : (يا لثارات الحسين) ، و (يا لثارات زيد) الى غير ذلك [3] . وهو لا يزال يلعب دوراً خطيراً في الحياة العربية الى اليوم .

وقد عيّر أحد الشعراء (بني وهب) ، لانهم أخذوا دية قتيل ، فاشتروا بها نخلاً ، فقال لهم :

الا أبلغْ بني وهب رسولاً بأن التمرَ حلو في الشتاء

أي اقعدوا وكلوا التمر ولا تطلبوا بثأركم [4] .

وهناك رجال ضُرب بهم المثل في ادراكهم الثأر . ويقال للواحد من هؤلاء : البيهس [5] .

١ نهاية الأرب (٣/١٢٢) .
٢ حلفت فلم تأثم يميني لأثأرن عدياً ونعمان بن قيل وأيهما .
تاج العروس (٣/٧١) ، (ثأر) .
٣ تاج العروس (٣/٧١) ، (ثأر) .
٤ المعاني الكبير (٢/١٠١٩) .
٥ تاج العروس (٤/١١٣) ، (البهس) .

الاستغاثـــة :

ومن مظاهر العصبية : الإستغاثة . وهي ان يصيح الإنسان واغوثاه . طلبـاً للعون والنصرة [1] وعلى من يسمع نداء الاستغاثة من أهل المستغيث أو من رجـال قبيلته أو الحلف الذي تكون قبيلته فيد مدّ يد العون له ونصرتـه . ويعاب من يسمع الاستغاثة فلا يعمل على مساعدة المستغيث . وقد يهجو المستغيث قومـه اذا تباطأوا في إغاثة المستغيث أو لم يستجيبوا لندائه ، وقد يتبرأ منهم ويتركهم ليلحق بقوم آخرين .

ومن أخلاق الجاهلية المناداة بالنصرة [2] . وقد ذكرت معناها في العصبية فهي أيضاً وجه من وجوهها . ذكر ان الرسول قال : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، وتفسيره ان يمنعه من الظلم ان وجده ظالماً . وان كان مظلوماً أعانه على ظالمه . والتناصر التعاونُ ، وقد حول الإسلام نصرة الجاهلية الى تناصر ، أي تعاون وتعاضد لأن المسلمين إخوة . ويكون بالانتصار من الظالم وبالانتصاف حتى يؤخـذ بحق المظلوم من الظالم [3] .

الوفـــاء :

وعلى الانسان الوفاء لأهل عصبيته ، ليس له مخالفتهم ولا معاكستهم مهما كانت درجة الخلاف بينه وبينهم ، لانه واحد ، وهم جماعة ، ان أصابه ضيم فلا بـد لجماعته من مواساته ومن الانتصار له مهما كانت أسباب الفرقة . وما يصيب جماعته سيصيبه ، وما سيصيبه ، سيؤثر في جماعته حتماً ، فيجعلها الى جانبه في الأخير .

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوت غَوَيْتُ وإن تَرشُدْ غَزِيّةُ أرشد [4]

وهي في الأخير كما يقول الشاعر (المتلمّس) لشخص ظن انه منتقل عنهم

١ اللسان (١٧٤/٢) ، (غوث) ، المعاني (١١٠٦/٢) .
٢ العقد الفريد (٥٨/١) .
٣ اللسان (٢١٠/٥) ، (نصرة) .
٤ هذا البيت لدريد بن الصمة ، حماسة أبي تمام (٣٠٦/٢) ، شرح المرزوقي على الحماسة (٨١٥/٢) ، الأصمعيات (١١٢) .

لخلاف وقع بينه وبينهم :

أمنتقلاً من نصر بهثة خلتني ألا إنني منهم وان كنت أينما
ألا إنني منهم وعرضيَ عرضهم كذي الأنف يحمي أنفه ان يصلّما [1]

فإذا أعطى رجلٌ رجلاً عهداً ، فلا يسعه ان يغدر به ، ولا بد له من المحافظة على العهد وما برح العرب يحافظون على عهودهم حتى اليوم . وقد يضحي الإنسان بنفسه على ان يخدش سمعته فيوسم بالغدر . وكانوا في الجاهلية اذا غدر الرجل رفعوا له في سوق عكاظ لواءً ليعرفوه الناس [2] . وقد ورد : (ان لكل غدرة لواء) ونصبُ اللواء في المواضع العامة وفي المواسم للإشارة الى غدر شخص بشخص آخر من أشهر الأشياء عند العرب [3] .

والى هذا اللواء أشار (الحادرة) ، (قطبة بن أوس) إذْ قال :

أسميَّ ويحك هل سمعت بغدرةٍ رفع اللواء لنا بها في مجمع [4]

واذا غدر الرجل بجاره ، أوقدوا النار بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين، ثم صاحوا : (هذه غدرة فلان) ليحذره الناس [5] . وقد قيل لهذه النار : نار الغدر [6] .

وربما جعلوا للمغادرِ مثالاً من طين ، ينصبونه ليراه الناس ، وكانوا يقولون : ألا ان فلاناً قد غدر فالعنوه . جاء في الشعر :

فلنقتلن بخالد سَرَواتكم ولنجعلن لظالمٍ تمثالا

فهذا التمثال ، هو تمثال الغدر والخيانة ، نصب ليقف الناس على خبر غدر الشخص الذي نصب له [7] .

---

١ نوادر أبي زيد (١٦٠) ، الأصمعيات (٢٨٦) .
٢ (ان لكل غادر لواء) ، المفضليات (ص ٥٦) .
٣ ارشاد الساري (١٠٦/٩) .
٤ المفضليات (٥٦) ، البحتري ، حماسة (٢١٦) .
٥ ونوقد ناركم شررا وبرفع لكم فى كل مجمعة لواء
٦ المفضليات (ص ٥٦) ، تاج العروس (٤٤٠/٣) ، بلوغ الأرب (١٦٢/٢) . نهاية الأرب ١١١/١) .
٧ بلوغ الأرب (٢٨/٣) .

وقد عاب الناس الغادر وعيّروا به فاذا شتموا شخصاً قالوا : يا غُـدَر ! وقد جعلوا الذئب من الحيوانات الغادرة ، فقالوا : الذئب غادر ، أي لا عهد له . كما قالوا : الذئب فاجر [1] .

أهل الغدر :

وقد حفظ أهل الأخبار أسماء رجال عرفوا بالغدر . وقد قال بعضهم : أعرف الناس بالغدر (آل الأشعث بن قيس بن معد يكرب) . وذكر ان الغدر ارث فيهم انتقل بهم الى الاسلام [2] . وضربوا المثل بغدر الضيزن بأبيها صاحب الحصن [3] .

ومن الوفاء : الوفاء بالعهود والمواثيق . فلا يجوز لمن أعطى عهداً وميثاقاً الغدر بهما والتنصل من الوفاء بهما . والوفاء من أنبل الخصال الحميدة التي يتخلق بها انسان . وهو من المثل العليا عند العرب ومن أخلاق (الإنسان الفاضل) عندهم . وقد أوفى (حنظلة الطائي) بعهده الذي أعطاه للملك (النعمان) يوم بؤسه بأن يعود اليه ، ليرى الملك رأيه في قتله . فعاد ، وهو يعلم ان الملك سيقتله ، لأنه أعطاه قولاً بالعودة ، وجعل (شريكاً) نديم الملك ضامناً له بالعودة . فلما عـاد ، واستمع الملك الى قصة وفائه أبطل عادته في قتل أول من كان يظهر أمامه يوم بؤسه ، اكرامـاً لعمله [4] . ورأى (السموأل) ابنه وهو في أيدي أحد ملوك الغساسنة أو ملوك كندة ، وهو يناديه بوجوب دفع ما عنده من دروع وأسلحة مودعة عنده ، من دروع وأسلحة (امرىء القيس) فقال له : (مـا كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي فاصنع ما شئت) . فذبـح ولده واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه ، ولم يسلم الوديعة إلا الى ورثة امرىء القيس [5] .

وقد دوّن أهل الأخبار أسماء أناس عرفوا بالوفاء . منهـم : (أوفى بن

١ اللسان (٨/٥) ، (غدر) .
٢ نهاية الأرب (٣٦٥/٣) .
٣ نهاية الأرب (٣٦٦/٣) .
٤ المستطرف في كل فن مستظرف (١٩٩/١ وما بعدها) ، (عبد الحميد أحمد الحنفي) .
٥ المحبر (٣٤٨ وما بعدها) .

مطر المازني) ، جاوره رجـــل ومعه امرأة له ، فأعجبت قيساً أخاه ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك (أوفى) فقتل قيساً بجاره [1] . و (الحارث بن عبّاد) ، وكان من وفائه انه أسر يوم (قضة) (عدي بن ربيعة أخا مهلهل) ، وهو لا يعرفه . فقال له : دلني على عدي . فقال له عدي : ان دللتك عليـــه فأنا آمن ؟ فأعطاه ذلك . فقال له : فأنا عدي . فخلّى سبيله [2] .

ومن أوفياء العرب (عوف بن محلم الشيباني) ، وهو من مشاهـــير سادات العرب . وكان من وفائه ان (مروان بن زنباع العبسي) كان قد وتر (عمرو بن هند) ، فجعل على نفسه ألا يؤمنه حتى يضع يده في يده . وان (مروان) غزا (بكر بن وائل) فأسر ، ولم يكن آسره منيعاً ، فطلب من أم آسره ان توصله الى (عوف بن مسلم) ، ولها منه مئة بعير ، فحمل الى (عوف) ، ولاذ بقبته ، وبلغ (عمرو بن هند) مكانه ، فبعث يطلبه ، فأبـــى عوف ان يسلمه الا ان يؤمنه . ثم أخذه عوف الى (عمرو بن هند) ، وجعل يده بين يد عمرو ويد مروان ، وأصلح بينهما ، فعفا (عمرو) عنه وآمن مروان . فقال عمرو : (لا حر بوادي عوف) فذهبت مثلاً [3] .

وعدّ (مروان بن زنباع) من أوفياء العرب ، لأنه وفى بعهده الذي أعطاه لأم آسره ، وكان قد أعطاه عوداً التقطه من الأرض ليكون رمز وفائه ، على ان توصله الى (محلم) فلما أوصلته دفع اليها المئة بعير ، كما تعهد لها بذلك [4] .

وضرب المثل بوفاء (عمير بن سلمى الحنفي) ، وله قصة في الوفـــاء تشبه قصة (أوفى بن مطر المازني) . ذكروا ان من وفائـــه ان رجلاً من (بني عامر بن كلاب) استجار بعمير وكانت معه امرأة جميلة . فرآهـا (قرين بن سلمى الحنفي) أخو عمير ، وصار يتحدث اليها حتى بلغ ذلك زوجها ، فنهاها . فخافته فانتهت . فلما رأى (قرين) ذلك وثب على زوجهـــا ، فقتله . وعمير غائب ، فأتى أخو المقتول قبر (سلمى) فعاذ به . فقدم (عمير بن سلمى)،

١ المحبر (٣٤٨) .
٢ المحبر (٣٤٨) .
٣ المحبر (٣٤٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢١٥) ، الأمثال للميداني (٢/٥٣١) .
٤ المحبر (٣٥١) .

فأخذ أخاه . وبلغ وجوه (بني حنيفة) الخبر ، فأتوه فكلموه ، فأبى الا ان يقتله أو يعفو عنه جاره ، وأبى أخو المقتول أخذ دية أخيه القتيل ولو ضوعفت ، فأخذ عندئذ (عمير) أخاه وقتله لغدره بجاره[1] .

ومن الأوفياء (أبو حنبل : جارية بن مرّ الطائي ثم الحنبلي) . وكان من وفائه ان (امرىء القيس بن حجر الكندي) ، كان جاراً (لعامر بن جوين الطائي) فتَقَبَّل (عامر) امرأة (امرىء القيس) ، فأعلمته ذلك فارتحل الى (جارية) ليستجير به . فلم يجده ، ووجد ابناً له أجاره ، فلما جاء (جارية) ورأى كثرة أموال (امرىء القيس) طمع فيها ، وعزم على الغدر بـ (امرىء القيس) ، ثم فكر في أمره ورأى ان الغدر عار ، فعقد له جواره ، ثم أخذه الى (عامر بن جوين) ، فقال لامرىء القيس : قبل امرأته كما قبل امرأتك . ففعل[2] .

ومنهم (المعلى الطائي) ، أحد (بني تيم) من جديلة . وهم (مصابيح الظلام) . وكان (المنذر) يطلب امرىء القيس ، فلجأ الى (المعلى) فأجاره ، وبلغ المنذر مكان (امرىء القيس) فركب حتى أتى منزل المعلى ، ولم يكن المعلى موجوداً ، وأبى ابنه تسليم امرىء القيس الى المنذر ومنعوه[3] .

ومن الأوفياء (عصيمة بن خالد بن سنان بن منقر) ، وكان (النعمان) قد غضب على (بني عامر بن صعصعة) ، فقتل منهم ناساً وشردهم ، فالجأهم (عصيمة) وأجارهم . فبعث اليه النعمان : (ابعث اليّ بعبيدي) فأبى ونادى في قومه شعاره (كوثر) ، وأقبل (النعمان) فأهوى (عصيمة) بالرمح الى معرفة فرسه ، ورجع الملك خائباً . ثم كسا (عصيمة) (بني عامر) وبلّغهم مأمنهم[4] .

وقد عدّ الوفاء محمدة وواجباً ، ولأجل توكيد الوفاء وترسيخه ، كانوا يضعون رهناً ، قد يكون ثميناً مثل أبناء سادات القبائل ، يقدمونهم رهينة لدى

---

١ المجبر (ص ٣٥٢) .
٢ المحبر (٣٥٢ وما بعدها) .
٣ المحبر (٣٥٣ وما بعدها) .
٤ المحبر (٣٥٤) .

الملوك ضماناً لهم في مقابل وفائهم بما تعهدوا للملك وبما عاهدوه عليه من شروط ، وقد يكون شيئاً لا قيمة كبيرة له من الوجهة المادية ، مثل رهن قوس ، أو سهم ، أو التقاط عود من الأرض وايداعها رهناً بالوفاء ، كما مرّ معنا في قصة (مروان ابن زنباع العبسي) مع (عوف بن محلم الشيباني) [1] ، أو في مقابل اعطاء كلمة بالوفاء ، كما في قصّة (الحارث بن عباد) [2] ، أو الوفاء بسبب استجارة انسان بقبر ، كما في قصة وفاء (عمير بن سلمى الحنفي) [3] .

العرض :

وعرض الرجل نفسه وبدنه ، وقيل العرض : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره . وقيل أيضاً : هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه ان ينتقص ويثلب . وذكر أيضاً ان العرض : عرض الانسان ، ذم أو مدح [4] . ويحرص الجاهليّ على ألا يمس بسوء . واذا تحرش أحدهم به ، أو شعر ان شخصاً أراد الانتقاص منه . ولو بتلميح أو باشارة أو بغمز ثار وهاج مدافعاً عن نفسه وعرضه ، لأن عرض الانسان أشرف شيء بالنسبة له في هذه الحياة .

ومن العرض صيانة أعراض الناس ، لأن من ينتهك عرض غيره ، ينتهك الناس عرضه ويعرض نفسه وماله وأهله للتهلكة . فقد لا يصبر شخص أهينت كرامته على هذه الإهانة فينتقم ممن تعرض به شرّ انتقام . ان لم يتمكن هو بنفسه ، ساعده في أخذ حقه أهل عصبته ورجال قبيلته ، حتى يثأر لنفسه ممن تعرض لعرضه بسوء .

ونجد في الشعر الجاهلي تبجحاً بالنفس واشادة في الدفاع عن العرض ، وتهديداً ووعيداً لمن يحاول النيل منه بأي سوء . وهو كلام يحمل حساد المتبجح بنفسه على الردّ

١ المحبر (٣٤٩) .
٢ المحبر (٣٤٨) .
٣ المحبر (٣٥١) .
٤ اللسان (٣/١٧١) ، (عرض) .

عليه وعـلى الطعن فيما قاله . وبذلك تتولد خصومة قد تطول وتكبر وتؤدي الى سقوط قتلى كانوا في غنى عنها لولا هذه الحمية الجاهلية القائمة على التفاخر والتباهي والزهو والحمق .

الحرية :

والعربي مجبول على الحرية ، وهو لا يطيق الخضوع لأحد غير قبيلته على ان لا يؤثر ذلك في حريته الشخصية ، وقد أعجب (هيرودوتس) وغيره من كتبة اليونان والرومان بحب العرب للحرية ولمقاومتهم للاسترقاق ، فذكروا انهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الآسيوية الذي لم يخضع لحكم الفرس ، فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم ، وانما اضطروا الى معاملتهم معاملة اصدقاء حلفاء ، فقاموا لهم بخدمات جليلة سهلت لهم فتح مصر ، ولو كان العرب حرباً على الفرس لما تمكنوا قط من حملتهم على مصر .

والعربي من هذه الناحية شديد التعلق بالحرية ، والاعرابي يشعر ، وهو في الحضر بين سكان القرى او المدن ، انه في سجن لا يطاق ، لكثرة القيود التي تقتضيها عادات المتحضرين ، ويسعى للعودة الى وطنه حيث ينطلق حراً كما يشاء . والقبائل تشعر هذا الشعور نفسه ، فهي تعيش منمتعة بأعظم قسط من الحرية ، لا تضحي بها ، الا لمقتضيات المحافظة على الحياة حيث ترتبط بواجبات التحالف مع القبائل الاخرى للدفاع عن النفس وضمان ضروريات الحياة .

ولما كان لكل شيء حد ونهاية ، غدت هذه الحرية انانية شديدة ، وفردية مطلقة حالت دون تعاون الافراد ، ومنعت من مساعدة القبائل بعضها بعضاً مع وجود خطر اجنبي داهم ، وحالت دون تكون المجتمعات الكبرى وهي الحكومات ، واقتصرت التنظيمات السياسية على القبائل ، وأصبحت العصبية للقبيلة تعني القومية . وزاد في حدة هذه الانانية القبلية اعتقادهم بالرابطة الدموية التي تربط الأسر بالعشائر ، والعشائر بالقبائل ، وارجاع ذلك الى الانساب فلا تتعصب القبائل الا لتلك القبائل التي تعتقد انها واياها من شجرة واحدة وأصل واحد .

ان الحياة الصحراوية التي طبعت اصحابها بطابع الافراط في حب الحرية الفردية ، قد اثرت كثيراً في الحياة السياسية والتفكير السياسي في بلاد العرب ، فاقتصرت

الافعال السياسية على افعال القبيلة ، وتراجع الفرد بل الاهل والعشيرة تجاه القبيلة ، وأثرت في اشكال الحكومات التي تكونت في الاماكن الخصبة وبين المتحضرين ، فجعلت منها اتحاداً مع قبائل جمعت بينها مصالح متشابهة ومنافع مشتركة . فاذا ما شعرت بزوال مصلحتها او ان من مصلحتها الانفصال عن هذا الاتحـــاد فلا تتوانى عن تنفيذ رغباتها وتحقيقها بالقوة . ولهذا نجد القبائل تهيج وتثور على الحكومات التي تخضع لها ، وتدين بالولاء لها ، لأسباب تافهة منبعها ومبعثها هذه الانانيـــة الضيقة التي تدفع سادات القبائل الى الانفصال والخروج من عبودية الخضوع لحاكم ، عليهم تقديم واجب الاخلاص والطاعة له . حاكم يرون انه لا يمتاز عنهم بشيء ، بل يرى كل واحد منهم لأنانيته انه اولى منه بالحكم وبتسلم القيادة ، وان من حقه الخروج عن طاعته ان وجد ظروفـــاً ملائمة متهيئة للانفصال عنه . فلما وجدت القبائل التي خضعت لحكم (ملوك كندة) ضعفاً في الاسرة الكندية الحاكمة ، ثارت عليها ، وقتلت منهم من قتلت ، وطردت من طردت ، وكوّن سادات القبائل امارات عديدة ، حلت محل مملكة كندة . ولما كان سادات القبائل يجدون ضعفاً في العلاقات بين ملوك الحيرة والفرس ، وبين ملوك الغساسنة وبين الروم ، كانوا يسارعون الى الاتصال بالفرس وبالروم لتنصيبهم مكان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة ، لا يرون في هذا العمل اي شين او بأس .

ويصعب في الحقيقة التوفيق بين الفكرة القبلية الضيقة والفكرة القومية التي تسمو فوق القبائل ، فالفكرة القبلية لا تعترف بوجود قومية غير قومية القبيلة ، ولا ترى وجود وطن غير الوطن الذي تنزل فيه القبيلة . فاذا ارتحلت عنه ، وحلت في ارض اخرى اصبحت هذه الارض وطن القبيلة الجديد ، الذي يجب أن يدافَع عنه . وأما الأوطان الاخرى ، ومنها وطن القبيلة السابق ، فليست بأوطانها . ومن هنا كان بون شاسع بين هذه الفكرة الوطنية الضيقة ، وبين الفكرة القومية التي تدين بعقيدة الايمان بالقوم اي الجنس الذي هو فوق القبائل والأمكنة ، وبالوطن العام الذي يشمل كل الارضين التي يستوطنها ذلك الجنس .

وقد جابهت الحكومات العربيـــة في الجاهلية ثم في الاسلام متاعب كثيرة من الروح القبلية العنيفة ، ومن الفردية المتطرفة ، فكانت هذه من اهم عوامل هدم المجتمعات السياسية الكبرى في بلاد العرب ، وكانت من اعنف اعداء القومية العربية ، لا في الجاهلية حسب ، بل في الجاهلية وفي الاسلام كذلك .

وأهم ما يعوز العرب في الجاهلية الشعور بفكرة (الأمة) ، التي تسمو فوق القوميات القبليـــة ، وفوق الاقليميات الضيقة التي هي ايضاً صفحة من صفحات الانانية . والشعور بلزوم الحد من الفردية الجامحة التي لا تعترف بحريّات الآخرين ، وبضرورة اطاعة المجتمع في سبيل المصلحة العامة ، واخضاع ارادة الحاكمين لمصلحة حكم الجماعة ، والتحديد من انانيتهم المفرطة ومن البت في امور الرعية ، وكأن الرعية سواد من ماشية ، عليها اطاعة سوط الحاكم وأوامره ، دون ان يكون لها حق في ابداء الرأي . فان غلطة الاستبداد بالرأي تؤدي الى أسوأ العواقب ، غير أن الحرية المفرطة ، أو الانانية الشديدة بتعبير أصح ، التي كادت تجعل المجتمع فوضى ، ضبطتها من ناحية أخرى قوة كبحت جماعها ، وحدت من حريتها ، وأجبرتهـــا على التقيد بقيود ، وعدم التحرك الا بحد وحدود . هي سنة وجوب اطاعة أوامر المجتمع ، والاستجابة لنداء الجماعة ، ولأحكام رؤساء الاحياء والبطون والافخاذ ، والصيحات التي تصرخها القبيلة أو فروعها لتنادي بنداء ، (العصبية) . والا عدّ الخـــارج على نداء الجماعة والمخالف لقرار رؤساء الأسرة او الحي أو القبيلة خارجاً على القانون وعلى العصبية فاستحق بذلك واجب خلعه من عصبية القبيلة له وطرده من قومه . وهو اشد عقاب يفرض على مخالف ما . عقاب : الخلع .

الخلع :

ويبقى الفرد متمتعاً بعطف قبيلته عليه ، وبحمايتها له ما دام قائماً بواجباته المترتبة عليه ، شاعراً بعظم التبعة . فاذا أجرم ، أو عمل عملاً ينافي شرفه أو شرف قبيلته ، واستمر في غيّه لا يسمع نصائح أهله وعشيرته ، كاسراً اعراف آله وقبيلته ، فقد عصبية اهله وقبيلته له ، وهام على وجهه طريداً يلتمس مجاورة رجل من عشيرة أو قبيلة اخرى قريبة من موطنه او بعيدة عنه . وتكون هذه الفترة من حياة الانسان شرّ فترة في حياته ، ولا يهدأ للطريد بال الا اذا وجد له حليفاً او جاراً يتعهد له بحمايته وببذل (العصبية) له ، وبالدفاع عنه .

ويقال للرجل الذي تغضب عليه قبيلته وتحرمه عطفها وعصبيتها له (الخليع) ، ويقـــال ذلك لمن يخلعه اهله أيضاً . وقد يقال له (الرجل اللعين) و (اللعين) . واللعين هو المطرود ، ولذلك يقال له (الطريد) ، الى غيرها من مصطلحات .

وربما خلعوا الرجل من القبيلة ولو كان من صميمها ، ويسقط عن أهله وقبيلته كل واجب يترتب عليهم أو عليها اذا عمل عملاً يستوجب خلعه ، كما تسقط عن القبائل التي قد تتعرض للخليع بشرّ كل تبعة تقع عليها من الاعتداء عليه ، خلع اهله او قبيلته له ، وتبرّئهم او تبرئها منه ، فلا يطالبون بثأر .

ولا بد من اعلان خلع أهل (الخليع) او خلع قبيلته له وتبرئها منه ، ليكون ذلك معلوماً عند افراد قبيلته او القبـائل الاخرى ، فتسقط العصبية عندئذ عن (الخليع) عند اعلان قرار الخلع ، والا بقيت في رقبة أولياء امره وقبيلته ، وذلك كأن يعلن الأب في المواضع العامة وفي المواسم انه خلع ابنه ، بأن يقول : الا ، اني قد خلعت ابني هذا ، فان جرّ لم اضمن ، وان جر عليه لم اطلب . او يعلن قومه : انما خلعنا فلاناً ، فلا نأخذ احداً بجناية تجنى عليه ، ولا نؤخذ بجناياته التي يجنيها .

وقد كان الحج من المواسم المناسبة لاعلان خلع الخلعاء ، وكذلك كانت مواسم الاسواق كسوق عكاظ . فهي مواسم تجمّع ، ينادي فيها المنادي بخلع من يراد خلعه . وكان أهل مكة يكلفون منادياً بالطواف بالاحياء ، ينادي بأعلى صوته عن خلع الخليع . وقد يكتبون كتاباً يحفظونه عندهم او يعلقونه في محلٍ عـام ليقف عليه الناس . [1]

وقد عاش الخلعاء عيشة صعبة ، لا احد يساعدهم أو يؤويهم خشية ان ينزل بهم أذى ، او يترتب على قبول جوارهم تبعة تجاه من يقتص آثارهم طلباً للثأر منهم . ولذلك تكتل الصعاليك احياناً وكوّنوا عصابات تغزو وتغير وتقطع الطريق . وكان الشاعر (عروة بن الورد) وهو منهم يجمع حوله الصعاليك والفقراء في حظيرة ويغزو بهم ويرزقهم مما يغنمه ، ولذلك سُمّي (عروة الصعاليك) . [2] ذكر أنه كان اذا شكا اليه فتى من فتيان قومه الفقر ، أعطاه فرساً ورمحاً ، وقال له : ان لم تستغن بهما فلا أغناك الله . [3]

١ الأغاني (٨/٥٢) .
٢ اللسان (١٠/٤٥٦) ، (صعلك) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٣) .

والصعلوك الفقير الذي لا مالَ له . [1] ومن الصعاليك (السليك بن سلكة) الشاعر العدّاء . وهو من العدّائين الذين ضرب بهم المثل في العدوّ . [2] وكان (حاجز بن عوف بن الحـــرث) ، وهو شاعر جاهليّ مقلّ ، احد الصعاليك العدّائين . كان يعدو على رجليه عدواً يسبق به الخيل . وكان يغير على قبائل العرب . [3] وكان (قيس بن الحدادية) من الشعراء الصعاليك الفاتكين الشجعان . خلعته خزاعة بسوق عكاظ ، وأشهدت على نفسها بخلعها اياه ، فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه . [4]

ومن بقية الصعاليك (الشنفرى) و (تأبط شرّاً) . غير ان اعرفهم وأشهرهم وحامل لواء الصعلكة فيهم ، هو (عروة بن الورد) ، الذي نصب نفسه سيّداً على الصعاليك . فكان يجمعهم ويشركهم فيما يغنمه ويررقهم من رزقه . ويبذل جهده لمواساتهم . فاجتمع حوله صعاليك (عبس) ، وهو منهم واتخذ لهم حظائر آووا اليها ، ولهذا نعت بـ (عروة الصعاليك) . قال اهل الاخبار : انما قبل له عروة الصعاليك مع انه عروة بن الورد ، لانه كان يجمع الفقراء في حظيرة ، فيرزقهم مما يغنمه . [5] فعروة لم يكن فقيراً محتاجاً معدماً ، كما يفهم من لفظة (صعلوك) . لقد كان في وسعه ان يجمع مالاً مما كان يغنمه من غاراته على العرب ، فيكون حسن الحال غنياً . لكنه فضّل الصعلكة على اكتناز المال ، ورجّح اشراك الفقراء فيما يغنمه على جمعه له واستئثاره له وحده ، لأن له مروءة تأبى عليه ان ينام شبعاناً وجاره فقير جائع . فكان ينفق ما يغنمه على المحتاجين . فهو صاحب مذهب انساني أحس بالألم ، وأدرك ما أصابه يوم خلعه اهله من شدة وضنك ، فأراد ان يخفف من آلام امثاله ممن خلعهم مجتمعهم لعدم وقوفه على اسباب خروجهم عليه . فصار بذلك نصير الصعاليك . ولقد ذكره (عبد الملك ابن مروان) ، فقال : (ما كنت احب ان احـــداً ولدني من العرب الا

١ اللسان (٤٥٥/١٠ وما بعدها) ، (صعلك) .
٢ الأغاني (١٣٣/١٨) .
٣ الأغاني (٤٧/١٢) .
٤ الأغاني (٢/١٣) .
٥ تاج العروس (١٥٣/٧) ، (صعلك) .

عروة بن الورد) . [1] فعروة صعلوك فلسف الصعلكة ، بأن جعلها مثلاً من مُثل الحياة . بينما كانت تعني فقراً مدقعاً وجوعاً قتالاً وهياماً على وجه الارض للاستجداء .

وقد كوّن الصعاليك عصابات تنقلت من مكان الى مكان تسلب المارة وتغير على احياء العرب ، لترزق نفسها ومن يأوي اليها . [2] انضم اليها الصعاليك من مختلف القبائل . ولكون اكثر الصعاليك من الشبان الطائشين الخارجين على اعراف قومهم ، ومن الذين لا يبالون ولا يخشون احداً ، صاروا قوة خشي منها ، وحسب لها حساب . خاصة وفيها شعراء فحول ، يحسنون الهجاء ويتقنون فن ثلب الاعراض ، وفيها مقاتلون شجعان لا يعبأون بالموت ، يفتكون بمن يريدون الفتك به . وخافهم الناس وامتنعوا جهد امكانهم من التحرش بهم ومعاداتهم ، ومنهم من قبل جوار الصعاليك وردّ عنهم وأحسن اليهم ، فاستفاد منهم واستفادوا منه .

وقد كان العرب ينفون الخلعاء الى اماكن معينة مثل (حَضَوْضى) ، وهو جبل في الجزيرة العربية كان الناس في الجاهلية ينفون اليه خلعاءها . [3] وقيل جبل في البحر او جزيرة فيه ، كانت العرب تنفي اليه خلعاءها . [4]

١ الأغاني (٣/٧٨) ، ديوان عروة بن الورد (ص ١٣٨ وما بعدها) ، العقد الفريد (١/١٩١) .
٢ الأغاني (١٩/١١١) .
٣ البلدان (٣/٢٩٦) .
٤ تاج العروس (٥/٢٠) ، (حض) .